مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

فاتنة الكونغو!

أروع قصة تنقلك إلى
جو الحياة فى الكونغو

شارل ميرسيه

فاتنة الكونغو

RACHEL CADE

BY

CHARLES MERCER

الثمن : ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب التاسع والستون

فاتنة الكونغو

ترجمة : زكى شنوده المحامى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منهـــا تسعة وستون كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصـة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الأعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج٠ع٠م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الأعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى ، وللمشتركين فى البلاد الأخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحوالة بريدية .

أفريقيا .. والغرب

عزيزي القارئ ..

قصة اليوم من نوع جديد ، تقـدمه اليك « مطبوعات كتابى » لأول مرة ..

ذلك أن « المطبوعات » قدمت من قبل قصصا عن الشرق بأقلام كتاب من الغــرب ، ولكن تلك القصص ـ فيما عدا النواحى العاطفية والرومانتيكية ـ لم تكن تعكس شيئا من المشاعر والافكار السياسية لدى أهل الشرق ..

أما القصص التى من نوع قصة **« فاتنة الكونغو »** ، فكان المترجمون والناشرون يتفـادون تقديمها ، لا لشىء الا لأن الـكتاب الغربيين ، كانوا ـ حتى اذا حاولوا الانصـاف ـ يحرصون على اظهار عيوب البلاد الافريقية بشكل يطغى على معالم النهضة فيها ..

ولكنا اليوم لم نعـد نخشى أن نواجه ما يكتبه الغرب عن الشرق ، وعن قارتنا الافريقية بالذات .. لم نعد نرى فيما قد يذكرونه من عيوبنا ، ما يجـرح شعورنا وكرامتنا ، لأن استقلالنا ، والطفرات التى قطعنا بها شوطا كبيرا فى مضمار التقدم ، تجعلنا أقوياء مستعدين لأن نواجه أى عيب ، فاما الفيناه صحيحا ، فعملنا على اصـلاحه .. واما ألفيناه تجنيا ، فنبذناه فى ترفع ..

***

ومع أن كاتب « فاتنـة الكونغو » غربى الا أنه حاول انصاف أفريقيا ما استطاع ، وفضح مثالب الاسـتعمار

الغربى بشكل واضح .. فنحن نرى ـ خلال السطور ـ كيف أن أطباء الارساليات ـ وهى امريكية ـ لا يهتمون بالأهالى الذين يزعمون انهم أوفدوا لعلاجهم وتعليمهم .. وكيف أن الحاكم ـ وهو بلجيكى ـ كان يعامل الافريقيين أسوأ معاملة .. وكيف أن الغربيين فى الكونغو ـ وهم حفنة من الانجليز والفرنسيين والبلجيكيين ـ كانوا أبشع صور للاستغلال الجشع ..

ومن ناحية أخرى ، كان الكاتب أمينا ـ الى حد كبير ـ اذ صور الافريقيين وهم يعتزون ببلادهم ، ويمقتون وجـود البيض فيها .. ويتحلون ـ وهم البدائيون ، كما يتصورهم الغرب ـ بأحلى الفضائل التى يفتقدها أولئك الذين كانوا يستعمرون البـلاد تحت ستار الرغبة فى رفع مستواها ، وتنوير أهلهـا ، وان راحوا فى الحقيقة يستنزفون خيراتها ويحرصون ـ فى سبيل ذلك ـ على أن يبقى أهلها فى وهدة التأخر ..

انها قصـة طريفة .. طريفة فى أفـكارها .. طريفة فى شخصياتها .. طريفة فى الصور التى رسمها الكاتب لبعض نواح من قارتنا الافريقية ..

فلأدعك تستجلى بنفسك مواطن هذه الطرافة .

المحـرر

القسم الأول

- ١ -

• في قلب افريقيا ، وفى واد من وديان (الكونغو) ، كانت السيارة تترنح فى الطريق من (دايبيلا) الى (روجيرى) ، يقودها الافريقى « كولو » وبصحبته زميله « موزينجا » ، وقد كلفهما الدكتور « بايكل » — طبيب الارسالية فى (دايبيلا) — بأن يذهبا الى (روجيرى) ليأتيا بالسيدة البيضاء ، التى تقرر أن تجىء لتعمل معه .

وبعد صمت طويل ، قال كولو : « أن الدكتور — فيما يبدو — سيتخذ السيدة البيضاء زوجة له » . فعبس موزينجا قائلا : « أن الدكتور قد بلغ من السن حدا لايستطيع معه أن يتخذ له زوجة .. ثم أن السيدة البيضاء لن تبقى هنا طويلا » .

قال هذا ثم صمت فى ضيق واكتئاب ، اذ كان يعلم — كما كان أهالى (دايبيلا) جميعا يعلمون — أن الدكتور لن يعيش طويلا ، وأن أهالى (دايبيلا) يكرهونه كراهية شديدة ، ويتمنون له الموت العاجل . . **أما هو ، فقد كان يحبه ويتمنى له طول البقاء . اذ كان الدكتور يتخذه ساعده الايمن ، فكان ذلك يجعل له بين أهالى القرية مكانة مرموقة ، حتى أنهم كانوا يلقبونه هو ذاته ب «الدكتور» !**

وما لبثت السيارة أن بلغت مشارف (روجيرى) ، فتطاير أمام عجلاتها الدجاج ، وفزعت الخراف ، واندفع الاطفال من أكواخهم — على صوت بوقها — صائحين : «جامبو .

جامبو ! » اى « مرحبا . مرحبا » . ومرت السيارة بحانوت البدال اليونانى ، وبثكنات الشرطة ، ثم اندفعت الى الرحبة الشاسعة التى تكتنفها أشجار « المانجو » ، حيث كان جماعة من المساجين يجتثون الحشائش ، وقد وقف على رؤوسهم شرطى ذو حلة زرقاء يراقبهم والعصا فى يده .. وكانت تتراءى - فى أقصى الرحبة - جدران السجن المشيد بالقرميد الاحمر ، كما تراءت - الى جانب السجن - محكمة (روجيرى) .. ولم تكن سوى سقف مستطيل بغير جدران ، ينتصب على أعمدة من الطوب ، وفى نهايته منصة اعتاد ان يجلس عليها الحاكم الابيض ليوزع العدالة ، يومين كل أسبوع . وفى الطرف الآخر من الرحبة ، منزل الحاكم ومكتبه .. وكانا بناءين مطليين باللون الابيض ، يقبعان فى ظلال نخيل (الرافيا) واشجار (الكوبال) ، وتمتد خلفهما الغابات الى مدى البصر .

وكان أمام مكتب الحاكم حارس وقف فى سروال وقميص من « الكاكى » ، وقد لف طماقا على ساقيه ، وانتصب فى وقفة عسكرية تحت وهج شمس الظهيرة . **فما أن رأى السيارة مقبلة ، حتى حرك بندقيته فى خشونة واتخذ وضع الاستعداد . الا أنه حين تبين أنها سيارة عتيقة متداعية ، تحمل اثنين من الافريقيين ، تراخى فى اشمئزاز ، وصاح قائلا : ((ماذا تريدان ؟))**

فرمقه موزينجا فى برود ، قائلا : « اننى الدكتور موزينجا و ... » . فقاطعه الحارس ساخرا : « دكتور زنجا .. دكتور عفريت .. ألست أحد صبيان ذلك الطبيب الابيض فى (دايبيلا) ؟ .. ماذا تريد ؟ »

فقال موزينجا ، بأعصاب هادئة : « أرى أن الحرس مازال

يضم المفلين .. أنا الدكتور موزينجا ، وقد أتيت لاصطحب السيدة البيضاء » .

فنظر اليه الحارس فى احتقار ، وقال : « ان السيدة البيضاء لا يمكن أن تركب هذا الشىء القذر ! » ، ثم بصق ناحية السيارة .

فقال موزينجا : « أين السيدة ؟ »

فأشار الحارس نحو بيت الحاكم قائلا : « عليك أن تنتظر ! »

- ٢ -

• فى هذه الأثناء كان مسيو « هنرى لوكومت » — حاكم مقاطعة (روجيرى) الشاسعة ، فى شرق الكونغو البلجيكى — يعب من زجاجة نبيذ موضوعة أمامه على المائدة . وكان من عادته أن يجرع — أثناء الغداء — زجاجة واحدة ، بيد انه شرب اليوم ثلاث زجاجات . وكان واثقا من أن زوجته « مارى » قد لاحظت ذلك ، ولكنه راح يسائل نفسه قائلا : « ترى هل عرفت السبب ؟ »

وكان السبب — فى الواقع — هو هذه الامريكية الحسناء، التى كانت تشاطرهما الغداء .. فقد فتنته بجمالها ، وأسالت لعابه بشبابها ونضرتها !

وكانت زوجته — بينذاك — تجلس بجانبه ، بدينة ، خامدة ، مرتخية الاطراف ، وقد اشتعل راسها شيبا ، وبرزت عروقها الحمراء على وجنتى وجهها الفلمنكى . فكان من المستحيل عليه ألا يقارن بينها وبين هذه الممرضة الفاتنة التى بعثت بها الارسالية الامريكية ، والتى عرف ان اسمها مس «كيد» .. مس «راشيل كيد» . وقد عرف أنها جاءت الى أفريقيا منذ سنة ١٩٣٢ ، أى قبل

سبع سنوات .. وكانت ــ فى ذلك الحين ــ فى الثالثة والعشرين من عمرها ، ومع ذلك فانها تراءت كما لو أنها لم تتخط العشرين ربيعا . ولم يلبث أن تساءل بينه وبين نفسه : ((**سبع سنوات فى أفريقيا .. ومع ذلك لم تستسلم بعد لأى مبشر أو طبيب ؟!))**

وود أن يتوقف عن التفكير فيها بهذا الالحاح ، ولكن.. كيف كان بوسعه ذلك ؟ .. لقد كانت تجلس أمامه ، تنصت وتبتسم لحديثه الذى لم يكن ــ هو ذاته ــ يعيه .. وقد بدت رشيقة ، هيفاء ، وردية البشرة ، فارعة العود ، فكان لا يفتأ يقول فى نفسه مندهشا : ((ان أفريقيا لم تؤثر فى جمالها على الاطلاق !)) .. وراح يتطلع الى شعرها الفاحم المصفف الانيق ، وذراعيها العاريتين البضتين ، وساقيها الملفوفتين الفاتنتين ، وكأنها جاءت لتوها من شواطىء (الريفييرا) ، ولم تقض سبع سنوات توزع أقراص الدواء فى غابات أفريقيا ! .. بيد أن أبدع وأروع مفاتنها ، تركز فى محياها الذى كان يلذ للمرء أن يطيل النظر اليه .. كان قوى التقاطيع ، ذا وجنتين عريضتين ، وجبهة فارهة ، وأنف مستقيم .. وكانت شفتاها ممتلئتين مفريتين جازمتين ، وعيناها عسليتين ساحرتين ساخرتين . ولعل شعرها الطويل لم يكن ملائما لأحدث طراز ، كما أن حاجبيها كانا متروكين على السجية ، غير مزينين ولا مزججين .. وصحيح أن بشرتها كانت طبيعية لا اثر فيها للدهون ولا المساحيق ، ولباسها كان بسيطا لا زركشة فيه ولا تزويق ، ولكنها كانت ــ مع ذلك كله ــ تحفة رائعة تخطف البصر وتفتن اللب .

وكان مسيو لوكومت يدرك كل الادراك أنه كئيب الشكل طويل العظام ، معروق الاطراف ، منفر الصورة فى سرواله القصير ، وقميصه المحسور الكمين ، وشعره الاشيب ،

وأنفه الكبير المقوس فوق شاربه المتهدل .. بيد أنه راح ـ مع ذلك ـ يتظرف اليها ، ويتبسط معها فى الكلام ، متوددا متملقا ، ثم لم يلبث أن قال لها : ((ولكن ماذهابك الى دايبيلا ؟ .. انها لمكان فظيع ، والطريق اليها شنيع ، وأهلها أكثر الناس تخلفا فى الاقليم كله)) .

فقالت : « أليس هذا بسبب كاف ؟ .. ألسنا هنا لنعالج هذا التخلف الذى يعانيه الناس ؟ » . فابتسم فى تهكم . ولكنها لم تشأ أن تخوض معه فى النقاش حول هذا الموضوع ، واستطردت قائلة : « كما اننى أتطلع الى رؤية الجبال التى تقبع (دايبيلا) فى ظلها .. تلك الجبال التى يسمونها جبال القمر .. ياله من اسم جميل !»

فاتخذ سمة العالم قائلا : « ان اسمها الاصلى هو الريونزورى ، وهى ترتفع نحو سبعة عشر ألف قدم ، وقممها العليا مغطاة بالثلج والجليد ، ولكن قليلين أولئك الذين رأوا تلك القمم ، لانها فى الغالب متلفعة بالسحب .. وقد أثارت هذه الجبال ـ منذ قرون بعيدة ـ خيال الافريقيين ، ووضعها بطليموس الاسكندرى على خريطته فى القرن الثانى وسماها جبال القمر ، وهى لا تزال تحتفظ بهذا الاسم . بيد أنه لا ينبغى أن يغريك اسمها الشاعرى ، فانها شديدة البرودة ، وتكمن بين صخورها المخاطر القاتلة . ويعتقد الافريقيون أن الله يقيم فى قممها ، وأن من يحاول أن يتسلقها تحل عليه اللعنة وموتا يموت !»

ثم لم يلبث أن انتقل بالحديث فجأة الى موضوع آخر قائلا : « ولكنك لم تسأليني عن رأيى فى الدكتور بايكل ؟ » فقالت : « كلا .. فقد كنت أتوقع أن تحدثنى عنه » .

فصمت هنيهة ، ثم قال : « أعتقد أنك ستجدينه صعبا كما عرفته أنا . فهو ليس من طراز رجال الارساليات على

الاطلاق ، وانما يتميز بطابع العلماء . كان ينبغى أن يرسله أحد المعاهد الامريكية بدلا من ان توفده الكنيسة . وقد كان ـ فى الفرص القليلة التى رأيته فيها ـ يشكو على الدوام من حاجته الى الاجهزة الطبية ، والى من يساعده فى عمله. وهو منطو على نفسه ، لا تعنيه الا شؤونه الشخصية، ومن ثم فانه لم يقم باية خدمة فى (دايبيلا) ، ولم يترك أى أثر فى الاهالى .. بيد أننى لم أقصد على الاطلاق بهذا الكلام أن أثبط من عزيمتك يامس كيد)) .

فقالت : ((انك لم تثبط من عزيمتى على الاطلاق ، وانما قلت لى فى الواقع ما سبق أن سمعته فى الارسالية .. ولكننى ارجوك أن تحدثنى عن دايبيلا ذاتها ، فأنا أعرف أن ثمة ارسالية أنشئت هناك قبل أن تضطلع ارساليتنا بالامر ـ منذ سنة ونصف ـ وترسل اليها الدكتور بايكل)) .

فقال : ((نعم . ان الذى فتح دايبيلا هو رجل انجليزى. وكان رجلا غريب الاطوار ، ذهب اليها مع زوجته فى سنة ١٩٢١ تقريبا . وقد عاشا هناك يسكنان كوخا فى أول الامر، ثم مالبثا أن أغريا بعض الاهالى بالرشوة على مساعدتهما فى اقامة بناء مسقوف بالقش ، جعلاه كنيسة ومستشفى ، وهو لا يزال قائما هناك ، وان كان قد أعيد بناؤه عدة مرات. على أن أحدا من الاهالى لم يكن يذهب الى الكنيسة أو يقبل الدواء من الرجل الانجليزى . وبدلا من أن يعود أدراجه ، ركبه العناد ، وأرغم الحاكم السابق لى على استخدام المسجونين فى بناء جسر على النهر ، وتعبيد الطريق الى دايبيلا . بيد أن الاهالى ظلوا يتجنبونه مع ذلك ويكرهونه. وبرغم ذلك ، بنى لنفسه ولزوجته هناك مسكنا مريحا ، لا يزال قائما حتى اليوم .. وهو الذى يقيم فيه الدكتور بايكل ، كما أنه بنى بالقرب منه كوخا صغيرا آخر ، يعلم

الله وحده لماذا بناه أو لمن بناه . وقد حدث كل ذلك خلال اربع أو خمس سنوات ، ثم ماتت زوجته . وبعد ذلك صعد الى الجبل ، ومنذ ذلك الحين لم يره أحد .. فقد اكلته الضباع » .

وبدا الذعر على وجه الحسناء ، فما لبثت أن انتصبت على قدميها قائلة : « لماذا أبقى أكثر من ذلك ؟ .. لقد بعثت الارسالية خطابا الى الدكتور بايكل تطلب اليه فيه أن يرسل سيارة اليوم لتأخذنى الى دايبيلا » .

فقال مسيو لوكومت متحمسا : «اننى سأقلك بسيارتى الى دايبيلا يامس كيد » .

غير أن الباب فتح فى هذه اللحظة ، فتطلعت الى الخارج قائلة : « أشكرك . هذا عطف منك ، ولكنى اظن أن هذه هى سيارة الدكتور بايكل .. فى الخارج !! »

فقال : « سنضع أمتعتك فى هذه السيارة ، وتأتين انت معى فى سيارتى » . فقالت وهى تمد له يدها مصافحة : « كلا . اشكرك يامسيو لوكومت ، وأرجو أن تزورنى مع « المدام » فى دايبيلا قريبا » .. ثم خرجت .

- ٣ -

. تقع (روجيرى) على منحدر يتجه نحو جبال (الروينزورى) ، فاذا تطلع المرء منها ناحية الشرق أمكنه ـ فى اليوم الصحو ـ ان يرى ذرى الجبال الملفوفة فى دثار ازرق ، تناطح السحاب ، على بعد أربعين ميلا . وقد اتفق أن كان يوما شديد التألق والصفاء من أيام أكتوبر ، حين غادرت « راشيل » تلال روجيرى . فلما تطلعت ـ من المقعد الخلفى لسيارة الدكتور بايكل ـ وقعت عيناها على الكتلة الزرقاء للجبال ، عبر السهل .. **فاستبدت بها الفتنة ، ودفعها دافع لا سبيل**

الى مقاومته ، لان تقول للسائق : ((أوقف السيارة من فضلك !)) . ثم نزلت ووقفت هنالك على الطريق تتطلع الى الجبال عبر المنحدر .

وكان السهل ينفسح امامها ناحية المشرق ، وقد بدت الغابات وهى تحتضن تلال (روجيرى) كأنها ذراعان قويتان لاتفتآن تنبسطان حتى تبدوا وكأن كفيهما تلمسان الجبال . واذ ملأت عينيها من ذلك المنظر البالغ الروعة ، استدارت وعادت الى مكانها فى السيارة التى ما لبثت ان واصلت المسير ، وراحت تدرج مصعدة فى الطريق المحفوف بأشجار « الميموزا » ، ثم بأشجار « البالميرا » .. وما لبثت الاشجار ان اختفت فجأة وبدت مكانها الاعشاب البرية الكثة ، واعواد قصب السكر الفارعة الطول .

ولم يكن ثمة الا اشخاص قلائل يلوحون فى الطريق أو فى القرى الصغيرة المتناثرة على جانبيه . **وقد لاحظت (راشيل) ان أولئك القلائل كانوا ينظرون اليها فى استياء وعداء ! ..** فكان الاطفال فى القرى يتطلعون اليها ، ولكنهم لاينطقون بكلمة الترحيب التى يستقبلون بها كل عابر ، قائلين : « جامبو . جامبو » .. والرجال الجالسون أمام أكواخهم يستديرون وينظرون اليها ، ولكنهم لم يكونوا يجيبون على تحيتها وهى تحييهم . والنساء العاريات الصدور الرازحات تحت احمال الحطب والعشب الجاف ، كن يحتجبن خلف أعواد الغاب الطويلة على جانبى الطريق حين يسمعن صوت السيارة ، ثم ينظرن من خلال الغاب فى كراهية وعداء . **لقد كانوا جميعا يمقتون أصحاب البشرة البيضاء الذين يستعبدونهم ..**

كذلك لاحظت أن كثيرين منهم كانوا يحملون دلائل المرض ، وتنتشر بينهم على الخصوص الامراض الجلدية وامراض العيون .. وفى احدى القرى رأت شابا يعانى من الالتهاب

السحائى ، فقالت فى نفسها أن هذه البلاد محرومة من العناية الواجبة ، وتحتاج الى كثير من العمل المخلص .

حتى اذا توغلوا ناحيـة الشرق ، ازداد ارتفاع الجبـال امامهم ، وهم منطلقون بين الحشائش الطويلة على الجانبين ، وكأن الجبال سور عظيم يسد الطريق عليهم . وأخيرا عبروا جسرا يمتد فوق نهر صغير ينبثق من قلب الصخور ، وقد قاربت رحلتهم على نهايتها .

وما لبث الاهالى أن أقبلوا من أكواخهم مهرولين نحـو السيارة ، وهم يتطلعون الى الزائرة الجديدة البيضاء ، فراح كولى يضرب البوق ، وموزينجا يشير اليهم بيديه ليفسحوا الطريق . وفى ضوء الغسق بدا بناء مطـلى باللـون الابيض يعلوه سقف مغطى بالغاب ..

وكان ذلك هو مقر الارسالية .. وكانت تلك هى (دايبيلا) .

***

ولكن راشيل لم تنظر الى البناء ، وانما فغرت فاها دهشة اذ وقعت عيناها على شجرة ضخمة من أشجار «الليمبالى» ، تناطح السماء بجذعها الشامخ الذى كان قطره نحو الست عشرة قدما ، وهى تنهض كذراع سوداء قوية ، ترتفـع من الارض الى عليين ، وقد امتدت فروعها فوق الارسالية كأنها يد رحيمة .. وشجرة «الليمبالى» أشد صلابة من السنديان، أمير الغابات الاستوائية .. وقد ثبتت هذه وامتدت جذورها هنا ، ثم شمخت حتى أصبحت تتحدى الجبال .

ونزلت « راشيل » من السيارة فى بطء . وفى هذه اللحظة أقبل نحوها رجل قصير ، مكتنز ، عجوز ، وكان يسـير فى تردد عجيب ، وكأنه يهم بأن يعود أدراجه فى أى لحظة ، وكان شعره ناصع البياض ، ووجهه يبدو فى الضـوء الخافت

فى مثل بياض شعره . وتوقف فجاة ، وتطلع اليها ، فبدا أن حاجبيه الابيضين اهتزا ، وأن الخطوط العميقة — المحفورة فى وجهه الكليل — ارتعدت من فرط الدهشة . ولم يمكنها أن تعرف علة دهشته . كان ذلك الرجل هو الدكتور بايكل ، وقد كان يتوقع وصولها بلا ريب .

وتقدم اليها قائلا فى صوت واهن ، ينطوى — معذلك — على شىء من الجفاف : « مرحبا بك فى دايبيلا يامس كيد » . وكانت يده وهو يصافحها واهنة كصوته . فعرفت لاول وهلة — اذ نظرت اليه وسمعت تنفسه السريع — انهمريض .

وما لبث أن قال لها : « ان الاولاد سيأتون بحقائبك » ، ثم تطلع اليها فجأة وقال : « هل أتيت معك بالدواء الذى طلبته ؟ »

فقالت : « نعم . انه فى الحقيبة » . فتحول صائحا باللغة السواحلية : « موزينجا . موزينجا . أحمل هذه الحقيبة الى منزلى بسرعة ! » . ثم استدار وهو يشير بيده فىالاتجاه العكسى ، قائلا لها من فوق كتفه : « هذا مسكنك يامس كيد .. سيقودك الاولاد اليه .. وسأنتظرك للعشاء بعد قليل ! » .. ثم ذهب .

ونظرت اليه فى غضب ، ثم أوسعت الخطى نحو الكوخ الصغير المسقوف بالقش ، والذى أشار اليه . وقد انقلب غضبها الى خوف ، حتى لقد خشيت أن تصيح من فرط جزعها . فما أن اجتازت الدرجتين الوحيدتين ، وتطلعت الى داخل الكوخ الذى لم يكن له باب ، حتى سالت الدموع من عينيها وقد كادت أن يلم بها الجنون .. فقد كان المكان فظيعا ، خاويا الا من سرير متداع تعلوه كلة ممزقة ، ومقعد أفريقى ذى ثلاث أرجل ، ومنضدة زرية تعلوها شمعة وزجاجة

ماء ، وحوض مهشم . وقد انطلقت عظاية تمرح على الارض في الضوء الخافت .

وبينما هي واقفة هكذا ، ينهش روحها مزيج من الغيظ والرعب واليأس ، شعرت بشخصين يقفان عند المدخل وقد جاءا بحقائبها ، فاستدارت وهي تحاول عبثا أن تبتسم لهما ، وكانا شابين من أبناء القرية ، بيد أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها وقالت لهما باللغة السواحلية : « كيف حالكما ؟ » .. ثم تقدمت اليهما وهي تبسط يدها قائلة : « أنا مس كيد .. ما أسماكما ؟ » .. فوقفـــا فاغرين فاهيهما ، ثم استدار أحدهما وانطلق يجري . أما الآخر فقد مد اليها يده قائلا : « أنا كوزونجو يامدام » .

وتفرست في وجهه الهادىء الذكي ، وكتفيه العريضتين القويتين ، قائلة : « أنا سعيدة برؤيتك ياكوزونجو . وأرجوك أن تملأ الحوض بالماء الساخن » .

***

وبعد أن ذهب ، وقفت تفكر قليـــلا ، ثم فتحت احـــدى حقائبها واخرجت شمعتين أوقدتهما .. ثم أخرجت قطعة من الصابون ومنشفة ومشطا وفرشاة وزجاجة «كولونيا» ومرآة ذات ظهر من الفضة ، فوضعت هذه الاشياء كلها على المنضدة . ثم جلست على المقعد ذي الارجل الثلاث ، وحلت شعرها وراحت تمشطه .

وما لبثت ــ بعد برهة ــ أن سمعت «كوزونجو» يقول من الخارج انه أعد المـــاء الساخن ، فدعته الى الدخول . واقبل حاملا المـــاء ، فصبه في الحوض دون أن ينظر اليها . فشكرته وخرج . وعندئذ خلعت ملابسها . وفيمـــا كانت تستحم ، سمعت خطوات ثقيلة تقترب من مدخـــل الكوخ ، وسمعت

الدكتور بايكل ينـــادى قائلا : ((مس كيد . مس كيد)) . فقالت فى برود : ((اننى أستحم .. ماذا تريد ؟))

وكان صـوته يرتعد من الغضب وهـو يقـول : « اين «النيتروجليسرين الذى طلبته ؟ » .. فصاحت : «لا ادرى اين هو .. لقد اتيت بالدواء الذى طلب منى الدكتورسبنسر ان آتى به فقـط ، ولا أدرى شيئا عن «النيتروجليسرين» الذى تتحدث عنه ، أو عن أى شيء آخر .. والآن قل لى: اين ومتى اتناول طعامى ، واذهب عنى ، واتركنى لشأنى !»

ثم تنبهت الى ما فى لهجتها من فظاظة ، فتوقفت هنيهة تريد أن تعتذر ، ولكنه ما لبث أن قال : « آسف يامس كيد. وانى لادرك شعورك .. أكملى استحمامك وفق راحتـك ، وسأجلس هنا على السلم ، وانتظرك ! » .. ومالبث ــ بعد هنيهة ــ أن قال : « من أى بلد انت فى الولايات المتحـدة يامس كيد ؟ »

قالت : « من كنساس » .

فقال : « وانا من نبراسكا » .

وخيل اليها أنه يتنهد وهو يقول لها : ((أعتقد أن هــذا المكان فظيع بالنسبة اليـك)) . فقـالت : ((انه خشن .. ولكنه ليس فظيعا)) .

ثم ساد الصمت فترة ، عاد بعدها يقول : « اننى لم افعل ما يستحق الذكر هنا » . فقالت وهى ترتدى جوربها : « قد يمكننى أن اساعدك فيما لم يتيسر لك الوقت لانجازه» . فتنهد مرة أخرى ثم قال :«اننى لم افعل شيئا ابدا.. لقد قضيت وقتى فى محاولة تسلق الجبـال ، وهذا هو الذى قتلنى » .

وجمدت فى مكانها وقد شعرت بقشعريرة تسرى فى بدنها،

واستمر هو يقـــول : ((أعتقد أن هذا هو السبب فى أننى مصاب بالذبحة الصدرية يامس كيد)) .

وشعرت بيديها ترتعدان ، وانتابها خوف – لايوصف – من أن تكون وحدها فى هذا المكان . ثم راحت تتم ارتداء ملابسها بسرعة ، وهى تقول فى اضطراب : ((لابد أننا سنحصل على بعض النيتروجليسرين هنا . لو كان الدكتور سبنسر قد علم بأنك مريض ، لارسله اليك بالتأكيد يادكتور بايكل)) .

فقال فى مرارة : ((لو انه عرف ذلك لاستدعانى من هنا، و ..)) . وهنا اضطرب صوته ، وانقلب الى حشرجة عجيبة، فخرجت تجرى نحـوه قائلة : ((يجب أن ترتاح مدة طويلة يادكتور بايكل .. الا توافقنى على ذلك ؟))

ولم يجبها .. ووجـدته ملقى فى الظـلام على الارض ، فصرخت قائلة فى فزع : ((دكتور بايكل !)) .. ولكنه كان قد مات !

– ٤ –

• ركعت بجانب جثته ، وأمسكت احدى يديه الهامدتين بكلتى يديها ، وتأوهت قائلة : ((ياالهى .. ساعدنى)) . ثم تلفتت حواليها صارخة ، فأقبلت أشباح سوداء تجرى فى الظلام . وعندئذ انتصبت قائلة وهى تجتهد أن تجعل صوتها هادئا : ((ان الدكتور بايكل مريـض .. هاتوا نقالة من المستشفى واحملوه الى بيته)) .

وميزت فى الظلام من بينهم ((موزينجا)) و ((كولو)) اللذين انطلقا فأحضرا – سريعا – محفة . فرفعت الدكتور بايكل من كتفيه ، وطلبت اليهما أن يرفعاه من قدميـه . فصاح أحدهما : ((انه ميت !)) . وعندئذ انطلق الجميع هاربين.. ثم لم يلبث ((كولو)) أن عاد مترددا ؛ فرفع الدكتور بايكل الى

المحفة .. وأقبل موزينجا ، فرفعا النقالة معا ، وسارا بها نحو المنزل ، وتبعتهما «راشيل» .

وكان ثمة مصباح غازى موقد عند مدخل البيت ، فأوقدوا مصباحا آخر فى الغرفة الكبرى ، حيث وضعوا المحفة . وأجالت «راشيل» بصرها – على الضوء الخافت – فى انحاء الغرفة .. كانت بها منضدة مستطيلة محملة بالكتب والصحف والاوراق ، وقد وضع على أحد طرفيها «ميكروسكوب» ، وعلى الطرف الآخر حقيبة من حقائب الاطباء . فاتجهت اليها وفتحتها ، واخرجت منها «سماعة» ، ثم عادت الى الجثة المسجاة ، فوضعت بوق «السماعة» على مكان القلب بها .. ولكنه كان ساكنا . فغطت الجثة ، واستدارت الى الواقفين بالباب قائلة : **« لقد مات الدكتور بايكل . فليجتمع كل أفراد الارسالية هنا فورا .. اذهبوا واستدعوهم ! »**

واختفوا فى الظلام ، فوجدت نفسها – فجأة – وحيدة مع الجثة . وراحت تجول فى حجرات البيت ، فألفتها فى غاية الفوضى والقذارة .. حتى اذا تولاها الاعياء ، أرتمت على أحد المقاعد ، وراحت تفكر : ماذا تفعل الآن وقد مات الدكتور بايكل ؟ .. هل ترسل فى طلب طبيب آخر ؟ .. انها تعلم أنه ليس ثمة طبيب آخر ، لاسيما فى هذه الظروف ، والحرب مشتعلة فى أوروبا ، ويبدو أنها ستمتد الى كل مكان .. فهل تعود أدراجها اذن الى مركز الارسالية ؟

***

وانطلقت الذكريات تمر بخاطرها متتابعة .. تذكرت حين دعاها الدكتور سبنسر الى مكتبه ، منذ أسبوعين .. لقد كانت هى مساعدته التى يعتز بها ويقدرها اكثر مما لو كانت ابنته .. وقد كان هو بدوره عندها فى مكانة الوالد الذى تعتز

به وتقدره ، لانها كانت على الدوام تفتقـــد حنـان الوالد الحقيقى .

ولقد سرح الدكتور سبنسر بصره خلال النافذة ، وهـو يقول لها أن الدكتور بايكل فى (دايبيلا) يطلب مساعدا له ، ثم أردف : « وقد قررنا أن نبعث اليه مساعدا » . وكانت تعلم أنه لا يأمرها بالذهاب الى (دايبيـلا) ، بل انه لم يكن يعنى ذلك على الاطلاق ، وانما كان فى الواقع يتكلم عن الدكتور «رالف مورجان» .

وكان الحديث عن رالف مؤلمـا للاثنين . فقد استطـاع خلال الاشـهر العشرة التى قضاها فى الارسالية ، أن يثبت انه طبيب قدير . وكان الجميـع يحبونه ويحبـون زوجته « آن » وطفليهما « تيمى » ..

وكانت راشيل تحبهم كذلك ، ولكنها بالتأكيد لم تتحقق من أن «رالف» كان يحبها هى ، حتى كان ذلك المساء،حين اصطحبها فى السيارة الى الارسالية ، تحت وابل المطر ..

فقد أوقف السـيارة فجأة ، وأمسك يدها ، وقال أنه يريد أن يتحدث اليها . واذ ظنت أن لديه مشكلة معزوجته «آن» ، اذعنت له ، فانحنى عليها ، وراح يغمرها بسيل من كلمات الغرام ، قائلا انه كان يحبهـا ، ويحتاج اليهـا ، ويشتهيها ويريدها . فبوغتت ، ولكنها لم تغضب . وقالت فى نفسها : « مسـكينة أنت يا آن ! » .. ثم أردفت قائلة ، فى نفسهـا كذلك : « مسكين انت يا رالف ! »

لقد أشفقت عليه ، اذ كانت تعرف أن الانسان لا يملك أن يكبح جمـاح رغبته . وقـد فكرت فى أن تذعن له ، وتذهب معه الى داخل الغابة ، وتمنحه ما كان يشتهى ، وينتهى الامر . ولكنها مالبثت أن أدركت أن الامر لن ينتهى بهـذا ، بل انه سيبدأ .. ستكون هـذه هى بداية المأساة

بالنسبة لها ، وبالنسبة له ، وبالنسبة لزوجته وطفله .. ولم تكن تعتقد أن الزنا خطيئة فى ذاته ، ولكنها كانت تخشى عواقبه . وكان هذا هو الذى منعها من أن تشاطر « رالف » المتعة التى طلبها منها . ومن ثم قالت له فى رقة أن هذا لن يكون . ولكنه لم يقتنع بقولها ، لا فى تلك اللحظة ولا بعد ذلك . فقد صمم على أن ينالها .. ومن ثم راح يلاحقها ، وراحت هى تحاول أن تتجنبه . ولكن ما السبيل الى ذلك وهو يلازمها فى مكان اقامتها ومكان عملها ؟

أما هو ، فاذ أخفق فى اقناعها بالاستسلام له ، راح ينتهز الفرصة ــ حين كان يتفق أن ينفرد بها ــ ويقول لها هامسا فى سخرية : « ان خوفك سيقضى عليك » .. أو يقول لها : « أراهن أن شخصا ما كان فظا معك ذات مرة ، فأفزعك . ولذلك ستظلين باردة هكذا ، وتصبحين عجوزا ، حقودا ، ولن تتمتعى بالحياة أبدا ! »

وكانت ــ فى كل مرة ــ تبتعد عنه دون أن تجيبه بكلمة.. عدا مرة واحدة ، اذ كانت تحمل زجاجة من الكحول ، ولاحقها بسخريته ، فاستدارت نحوه وهى تنظر اليه فى غضب وتحفز ، حتى لقد أحس بأنها ستحطم الزجاجة على رأسه ، فابتعد عنها مسرعا .. بيد أنها كانت لا تفتأ تفكر فى الأمر ، وتتساءل فى نفسها قائلة : أتراه كان يفهمها على حقيقتها ؟.. لقد كانت تعتقد أن الجنس من حقائق الحياة الطبيعية والضرورية ، بل اللذيذة .. وطالما أنها كانت تحب الحياة ، فكيف تتجنب الجنس ؟.. أليس مرد ذلك الى الخوف ؟.. واذن ، فهل كان مخطئا حين وصفها بالجبن ؟

***

وعندما أخبرها الدكتور سبنسر بفرصة الذهاب الى

(دايبيلا) منـــذ أسبوعين — وهو يتطلع من النـافذة — استدار فجأة ، ولبس نظارته ، ثم نظر اليها فى وقار قائلا :
« كيف تجرى الأمور معك يا راشيل ؟ »
وتبين لها أنه كان يعرف كل شىء عن « رالف » ، فأشاحت ببصرها الى الناحية الأخرى ، ولم تجبه .. فقال فى تؤدة :
« أعلم أن الأمر كان صعبا بالنسبة اليك يا راشيل ، وأنا أحترمك من أجل الطريقة التى عالجت بها الموقف ! » ..
وصمت هنيهة ، ثم انتزع نظارته فى انفعال ، قائلا : « لست أجبرك على الذهاب الى دايبيلا . والواقع أننى لا اريدك أن تذهبى الى هناك . هل تفهمين ؟ »
وكانت تفهم .. لقـــد كان يعرض عليهـــا الذهاب الى (دايبيلا) ، لأنها المكان الوحيد الذى يملك ان يرسلها اليه.. ولم يكن بوسعه ان يرسل رالف ، والا لكان قد ضحى به بدلا منها ، وهى أعز رفاقه فى أفريقيا ، ومن ثم فقد كانت تضحيته هو بذهابها ، أكثر من تضحيتها هى بالرحيل الى دايبيلا . فأجابته قائلة : « اننى أفهم .. ولكننى أحب أن أذهب الى دايبيلا » .
وكانت تقول الحقيقة ، فقد كانت بالفعل تريد أن تذهب الى هناك ، يدفعها الى ذلك خيالها وما تصورته من مناظر جبال القمر . فنظر اليها الدكتور سبنسر فى دهشة قائلا :
« انها قد تكون تغييرا مبهجا لبضعة أشهر » .
لقد كان يحبها ، اذ كانت تجعل الحياة لديه أيسر وأكثر بهجـــة فى غابات أفريقيا .. وما كان ليلقى بهـــا الكلاب المتوحشة لمجرد أن الدكتور الشاب قد عجز عن السيطرة على غرائزه . بيد أنها قالت متسائلة : « لبضعة أشهر ؟ » .
وكانت لهجتها تنم عن الاستياء ، فهز رأســـه .. وما لبث أن مزق حجاب التحفظ الصلب ، الـــذى يفصل عادة بين

الطبيب والممرضة ، وبين الرئيس والمرؤوس ، قائلا : « لقد افتتحنا فرع الارسالية فى دايبيلا بناء على رغبة الدكتور بايكل ، ولم يبق على تقاعده سوى بضعة أشهر ، سنغلق بعدها فرعنا فى دايبيلا » . ثم تطلع اليها قائلا : « لماذا يبدو عليك كل هذا الاكتئاب للأمر ؟ » .. بيد انها عجزت عن أن تبين له السبب .

***

وفيما كانت مسترسلة فى هذه الخواطر ، أفاقت فجأة ، ووقعت عيناها على « كولو » و « كوزونجا » واثنين آخرين يقفون لدى الباب ، ويراقبونها . فنهضت من مقعدها قائلة: **((أين الآخرون ؟))**

فقال كولو : « هؤلاء هم كل أفراد الارسالية يا مدام » .

فاندفعت نحوهم قائلة فى دهشة : **((كلهم ؟.. هؤلاء هم كل أفراد الارسالية ؟))**

قال كولو : **((ان الآخرين قد ذهبوا))** .

فقالت فى نفسها : **((اذن فهؤلاء فقط هم الذين أستطيع أن أعتمد عليهم))** . ثم سألتهم قائلة : **((أين موزينجا ؟))** . فنظر كولو طويلا الى الأرض ثم قال أخيرا : « موزينجا ذهب ليخبر الاهالى » .

وسألت الاثنين اللذين كانا مع كولو وكوزونجو عن اسميهما ، فابتسم أحدهما ، وقال : « أنا جوتا ، طباخك يا مدام » . فابتسمت قائلة : « اننى سعيدة بلقائك ياجوتا » .. ثم نظرت فى تساؤل الى الآخر ـ وقد كان قصيرا ، عريض المنكبين ، ذا أنف عريض مفرطح ـ فنظر الى الأرض قائلا : « أنا مزيمبا » .

وقالت : « اننى سعيدة بلقائك يا مزيمبا . ماذا تفعل فى

الارسالية ؟ » . فأجاب قائلا : « أنا النجار » .

وصمتت قليلا ثم قالت : « وكم عدد الذين ذهبوا ؟ » . فقال كولو : « اثنان يا مدام » .

فقالت ببطء : « اذن لقد خافا لأن الدكتور بايكل قد مات . يالهما من جبانين ! » .. واستطردت قائلة : « سندفن الدكتور بايكل غدا » .. ثم التفتت الى مزيمبا قائلة : « أسرع بصنع صندوق لجثته ! » .. فنظر اليها فى دهشة قائلا : « صندوق ؟ » .. لم يكن يفهم . فان الدكتوربايكل ، والرجل الانجليزى الذى سبقه لم يستطيعا — فى كل هذه السنين — أن يعطيا فكرة عن المدنية أو الدين ، لهؤلاء البسطاء الذين كانوا مخلصين لهما !

***

وفجأة تذكرت المستشفى . لابد أنهم جاءوا مسرعين ، وتركوا المرضى فى المستشفى . فاختطفت مشعلا ، وقالت مسرعة : « أرونى الطريق الى المستشفى ! »

وذهبوا معها ، فسارت يتقدمها ضوء المشعل ، وهى تسمع وقع خطواتهم بجانبها فى الظلام . وأخيرا أشاروا لها نحو بناء طويل أقيمت جدرانه من القش ، وقالوا أنه المستشفى . فتولتها الدهشة ، اذ كان البناء مظلما لا يصدر من داخله بصيص من نور . حتى اذا دلفت من الباب ، رأت — على ضوء مشعلها — صفوفا من الأسرة الخالية . فصاحت قائلة : « أين المرضى ؟ » .

وقال كولو فى رقة : « ليس هناك مرضى يا سيدتى » . فعقدت الدهشة لسانها . هل هذا معقول ؟.. ثمة شىء هنا غير مفهوم . ثمة سر أعمق من أن يمكن ادراكه . والا

فماذا تعمل الارسالية اذن ؟.. وماذا كان يعمل الدكتور بايكل ؟

وتولاها السخط وأربد وجهها فى ضوء المشعل .. ثم فجأة ، دوى فى جوف الظلام الصامت صوت الطبول يملأ الوادى ، فوجفت وبوغتت . كان دق الطبول محرما فى الليل . وشعرت بالعرق يتفصد من جبينها . وما لبثت أن انطلقت توسع الخطى ، مبتعدة عن المستشفى ، وعمال الارسالية يخبون بالقرب منها .

وما لبثت الطبول أن توقفت بعد برهة ، ولم يعد ثمة صوت فى سكون الليل الا نقيق الضفادع يأتى من بعيد .. ولكن دوى طبول أخرى لم يلبث أن أقبل من أمكنة نائية ، كأنه رد على الطبول الاولى . **فشعرت ببرودة الثلج تتسرب فى عظامها ، واستبد بها الخوف .. انهم يدبرون امرا ، فماذا تراهم سيفعلون ؟.. ليتها تفهم لغة الطبول !**

وتوقفت عند شجرة « الليمبالى » ، وطلبت الى مرافقيها أن يأتوا بأمتعتها من الكوخ ، فيضعوها فى منزل الدكتور بايكل . حتى اذا هدأت قليلا ، أعد لها « كولو » عشاء من الحساء والبطاطس واللحم ، ثم قدم لها القهوة . وعند منتصف الليل ، أطفأت المصباح ، وخلعت ملابسها فى الظلام ، وارتدت قميص النوم ، ثم استلقت على السرير وراحت تنصت الى حديث الطبول . ولم تلبث أن سمعت موسيقى الرقص تنطلق تحت جنح الليل ، وخشخشة الودع وهو يرتطم بعضه ببعض حول أعناق الراقصين .

وقضت القرية الليل كله مستيقظة حتى الصباح ..

ولم يطف بعين راشيل النوم الا لماما ، وقد خالطته الأحلام المفزعة . حتى اذا طلع الفجر ، قامت من سريرها متثاقلة . وفيما كانت تهم بالنهوض ، لمحت شيئا صغيرا

ملقى على الأرض بالقرب منها ، فالتقطته وراحت تفحصه في اهتمام .. **كان قطعة مفضضة من جلد الحيوان ، مطوية على حصاة صغيرة .. وكانت تعلم كنه هذا الشيء .. كان طلسما سحريا ينذر بهلاكها !..** فاستبد بها الحنق ، ولكنها مالبثت ان قالت في نفسها : « أن يخرجوني من دايبيلا ! » . وفي تحد ، اخرجت من حقيبتها خيطا ، وربطت به الطلسم ، ثم علقته في عنقها . وحين دخل « جوتا » ورأى الطلسم يتدلى على صدرها ، صرخ في فزع وانطلق خارجا يجرى .

— ٥ —

• **استيقظ** « موزينجا » ، فألفى نفسه تحت شجرة ضخمة من أشجار « المانجو » ، وقد ثقل رأسه ، فهو بالكاد يستطيع أن يحركه . ثم مالبثت ذكريات الليلة الماضية أن عادت الى ذهنه في بطء : فقد ذهب الى القرية بالخبر المفرح ، خبر وفاة الدكتور بايكل ، ثم اشترك مع الاهالي جميعا في الرقص والقفز والصياح ، وشرب معهم كثيرا من نبيذ الموز ، بهذه المناسبة السعيدة . **لقد مات الدكتور بايكل من جراء لعنة أفريقيا . ولن يمكن لأحد من الغرباء — بعد اليوم — أن يمكث في هذه الأرض . انها أرض الأهالي .. أرض الافريقيين .**

وكان عليه أن يذهب في الصباح الباكر — كما أمروه — وينذر السيدة البيضاء ، طالبا اليها أن ترحل .. أجل ، أمروه بأن يفعل ذلك ، والا حلت عليه اللعنة هو الآخر .. وقد لمح عيونهم — وهو في رقدته هذه — ترقبه من خلال الاعشاب الطويلة ، فسار يترنح وهو يحس بأبصارهم تتبعه .. كانت النساء في الطريق تتوقفن عن عملهن وتنظرن اليه ، والشيوخ من الرجال يتوقفون عن ثرثرتهم ويراقبونه ،

الاطفال يتوقفون عن اللعب ويشيعونه بأبصارهم .. **كانت عيونهم جميعا تتساقط عليه كأنها السياط .. كلهم يذكرون انه كان اليد اليمنى للدكتور بايكل ..**

وتجمع حوله موكب من النساء والاطفال والكلاب ، وهو يتجه نحو شجرة « الليمبالى » .. وكان اذا أوسع الخطى ، أوسع الموكب خلفه الخطى ، وحين يبطىء كانوا يبطئون كذلك ! كانوا يتدفقون كأمواج تتلوها أمواج ، يدفع المتقدمين منهم من كانوا يأتون خلفهم من اقصى القرية ، وهم يتحركون كالنهر فى همهمة صامتة .. حتى اذا بلغ شجرة «الليمبالى» ، رأى « مزيمبا » و « كوزونجو » يحفران تحت الشجرة ، وقد وقفت السيدة تراقبهما . فلما لمحته اتجهت اليه قائلة : « صباح الخير يا موزينجا » .

وعندئذ ارتفعت زمجرة الأهالى خلفه ، فتطلعت السيدة اليهم ، وأمسك مزيمبا وكوزونجو عن الحفر ، ووقفا داخل الحفرة ينظران الى الأهالى ثم الى السيدة فى خوف . كما اقبل كولو ووقف بجانبها . وسألت السيدة قائلة : «ماذا يفعل الاهالى هنا يا موزينجا ؟ .. ماذا يريدون ؟ » .

فقال لها : ((انهم يريدونك أن ترحلى)) .. ثم رفع ذراعه مشيرا باصبعه الى الطريق المؤدى الى خارج دايبيلا .

وما ان رأى الأهالى اشارته ، حتى علت زمجرتهم مرة اخرى ، وراحوا يهزون رؤوسهم موافقين على قوله .. وفى هذه اللحظة ظهرت سيارة آتية من بعيد ، وما لبثت أن اتجهت نحو شجرة « الليمبالى » ، وهنالك توقفت . فاشتد لغط الاهالى ، ثم فجأة صمتوا صمتا مطبقا ، فقد رأوا الحاكم الأبيض ينزل من السيارة ..

***

ترجل « مسيو لوكومت » فى خيلاء ، وكان يرتدى حلة « كاكية » زاهية . وتقدم نحو السيدة مبتسما لها ، وهو يضرب ساقه بعصاه القصيرة التى هى رمز السلطة ، فمدت له يدها .. وانحنى عليها فقبلها . وعندئذ تنفست الصعداء، وقالت له : « لقد كنت على وشك أن أبعث اليك كولو يحمل أخبارا .. ان الدكتور .. »

فهز رأسه قائلا : « اننى أعلم .. ان الدكتور بايكل قد مات » . فقالت : « ولكن كيف عرفت ؟.. آوه ، من طبول الليلة الماضية ولابد ! » .. قال : «نعم . انها الاذاعة المحلية!». ثم أشار الى الاهالى المتجمعين قائلا : « ولكن ما هذا ؟.. لماذا يقفون هكذا ؟ » . فقالت : « لا أعلم تماما .. كل ما فهمته أنهم يريدون منى أن أغادر دايبيلا ! »

فزمجر لوكومت ، وصرخ قائلا : « ماذا ؟.. الخنازير !.. انهم مازالوا كما كانوا منذ خمسين سنة .. ولكننى سأعرف كيف أربيهم » . ثم التفت الى راشيل قائلا : « لا تكترثى لهؤلاء الكلاب ، وسأرسل فرقة من الجنود الى هنا .. بيد أنك لن تمكثى هنا طويلا ! » . فالتفتت اليه فى تساؤل قائلة : « ماذا تعنى يا مسيو لوكومت ؟ » .

قال : « اننى آسف يا مس كيد اذ أقول أنك لابد أن تغادرى دايبيلا ، ولكن .. بعد بضعة أيام ! فأنت تعرفين أننا لايمكن أن ندع البيض يغادرون أماكنهم لمجرد أن بعض السود طلبوا اليهم أن يرحلوا » .

ثم نظر الى موزينجا مكشرا عن أنيابه ، وقال : « من هذا الذى يتزعم الغوغاء ؟ » . فقالت راشيل : « انه موزينجا ، مساعد الدكتوربايكل » . فصرخ قائلا : « أنت ياموزينجا ؟!.. تعال هنا » . فاقترب موزينجا فى بطء ، منكس الرأس ، وقد صمت الاهالى كأن على رؤوسهم الطير . وبعينين تقدحان

شررا ، قال له : « ماذا تريد من السيدة ؟ » . فأجاب فى صوت خافت وهو ينظر الى الارض قائلا : « لاشىء ياسيدى الحاكم » . وقال : « هل طلبت منها أن تغادر دايبيلا ؟ » فازداد رأسه انحناء وازداد صوته خفوتا وهو يقول : « كلا ياسيدى الحاكم .. لعل السيدة لم تفهم ! » .. فزمجر لوكومت قائلا : « الا تعلم أن هذا معناه سنوات طويلة فى السجن ؟ » فغمغم موزينجا،وهز رأسه فى موافقة واستسلام.
عندئذ التفت لوكومت الى الأهالى الواقفين وبصق فى وجوههم ، ثم نادى سائق سيارته قائلا : « أستدع الرئيس بودرجا ! » . ثم استدار ليلقى نظرة على جثة الدكتوربايكل.

***

وبعد برهة ، جلس يتحدث مع راشيل فى شرفة المنزل حتى يتم حفر القبر . فقالت له :« أننى لن أرحل عن دايبيلا يامسيو لوكومت » . فصاح فى دهشة قائلا : « كيف ذلك؟» .. فقالت : « يخالجنى شعور بأننى لن أرحل ! » . فابتسم فى تهكم قائلا : « شعور ؟ ! » .. ثم أردف قائلا : « أننى متأكد يامس كيد انه بمجرد أن تصل رسالتك الى مركز الارسالية ، سيأمرونك بأغلاق الفرع فى دايبيلا والعودة فورا » .. ثم قفز فجأة وهو يحدق فى رقبتها ، وصاح قائلا : ماهذا الذى تعلقينه فى رقبتك يامس كيد ؟ » .
وابتسمت قائلة : « انها تميمة .. لقد وضعوها الى جانب فراشى فى الليلة الماضية . ولا شك أنهم يقصدون بها موتى ! » . فراح يسب ويلعن ، ثم قال : « ان بودرجا مسئول عن ذلك » . ومست ذراعه فى رفق قائلة : « لا يذهب بك الغضب كل مذاهب ، فقد قضيت فى أفريقيا مدة طويلة ، ولا بد أن تكون متسامحا فى مثل هذه الأمور ، لا سيما بالنسبة

لهؤلاء الاهالى المتخلفين . وسأجتهد فى ان افعل من أجلهم شيئا ! »

فقال فى تهكم : « تفعلين من أجلهم شيئا ؟ ماذا ستفعلين من أجلهم يامس كيد ؟ »

ــ سأبذل كل جهدى كى تبقى هذه الأرسالية مفتوحة فى دايبيلا .

ــ ولكن لماذا ؟

ــ أنت تعرف حالة الأهالى هنا . أنهم أميون ، ومرضى ، وفقراء .

ــ وماذا يهمك من ذلك ؟

ــ أننى أحب هذا المكان .

ــ كلا . فأنت مثلنا نحن البيض جميعا فى أفريقيا .. ما نحن الا مغامرين ! .. انك لا تحبين أفريقيا ، وانما انت تحبين المغامرة يامس كيد !

وكانت تعرف أن هذه هى الحقيقة . بيدانها كانت تأبى أن تكون مجرد واحدة من أولئك المغامرين الذين يتخذون من الدين قاربا ، ومن الطب مجدافا لمغامراتهم . وانما كانت تود أن تكرس نفسها لغاية نبيلة ، تهب لها كل حياتها .. وقد أدرك الحاكم ما يجول بفكرها ، فقال : « **أننا جميعا مغامرون يامس كيد . ونحن نهدف من وراء مغامراتنا الى منفعتنا الشخصية قبل كل شىء ، فلا ينبغى أن نخدع أنفسنا !** .. ومع ذلك فأننى أعتقد أن نقاشنا حول هذا الموضوع مجرد هراء ، لأنك بعد أسبوع أو نحوه سترحلين على أية حال !! »

وأجابته فى تأكيد : « كلا . وقد شرحت الأمر كله فى خطابى الى مركز الأرسالية » . فقال : « ولكن الخطاب لن يصل الى هناك قبل أسبوع أو عشرة أيام .. ثم انك تنسين

هذه الحرب القائمة فى أوروبا الآن .. انها سرعان ماستمتد الى كل مكان ، وستعزلنا هنا فى افريقيا ، فلن يكون هناك طبيب للارسالية فى دايبيلا . ولن يكون هناك دواء ! »

***

وفى هذه اللحظة أقبل سائق عربة لوكومت ومعه رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، يلتفع برداء يدل على المركز والسلطان ، وينطق وجهه العريض العظام بالثقة والهدوء . وكان ذلك هو الرئيس بودرجا ، عمدة القرية .. فما لمحه لوكومت ، حتى اندفع الى رأس السلم قائلا فى غضب ، والشرر يتطاير من عينيه : « لماذا يتجمع الاهالى هنا ؟ أليس هناك عمل اليوم فى دايبيلا ؟ »

وطأطأ بودرجا رأسه ولم يجب . وعندئذ تقدمت راشيل قائلةللوكومت : « اسمح لى ! » .. ثم تخطته ، وهبطتالسلم ومدت يدها الى الرجل قائلة له : « أنا مس كيد .. أننى مسرورة برؤيتك أيها الرئيس بودرجا » . فتطلع اليهابعينيه الواسعتين ومد لها يده ، فشدت عليها قائلة : « تعال تفضل بتناول قدح من الشاى معنا » . وأخذته من ذراعه ..وكانت تحس بمقاومته ، وهى تدفعه لأن يصعد درجات السلممعها. **وبينذاك راح لوكومت ينظر اليها فى دهشة ، ثم قال : « انك تخطئين بمعاملته هكذا يا مس كيد » . فقالت : « بل ان هذا هو عين الصواب يامسيو لوكومت . وما اظنك تعامل كل رؤساء القرى بهذه الطريقة » .**

وأخذت ابريق الشاى من جوتا قائلة : « أجلس من فضلك أيها الرئيس بودرجا ! » . وأشارت الىمقعد ،فجلس الرجل فى تردد . وعندئذ ملأت قدحا بالشاى ، وقدمته اليه . فأخذهبيديه الاثنتين .. وقد سرها أدبه ، فقالت فى

نفسها : « انهم قوم طيبون ، ولكن المعاملة السيئة تجعلهم شديدى المراس » .

وعاد لوكومت يقول له : « لقد كانت طبولك تقرع فى الليلة الماضية ، وكان ضجيجها يتجاوب فى الظلام، والناس نيام ! » . فأطرق بودرجا الى الارض طويلا ، ثم قال : « ان شباب القرية لا ينامون كثيرا . وقد قلت لهم مرارا انه لا يصح اقلاق النائمين بقرع الطبول » .

قال لوكومت : « والقد أتى أحدهم أثناء الليل بهدية للمس كيد .. هى هذه التميمة التى ترتديها الآن لتبدى احتقارها لخزعبلاتكم ! .. فهل تعتقد أنها ستسبب لها الموت حقا أيها الرئيس بودرجا ؟ » . **فأحنى رأسه فوق قدحه ، وقد طافت بوجهه مسحة حزينة ، وقال : ((نعم)) . ثم تألقت حبات العرق فوق جبينه ، بينما ارتفعت أصوات الهدهمة بين الاهالى المحتشدين ، وقد تملكهم خوف عظيم .**

وأغمض بودرجا عينيه ورفع قدحه بيد مرتعشة ، وجرع ما كان فيه دفعة واحدة ، ثم وضعه على الارض .. وظل صامتا مطرقا ، حتى قالت له راشيل : « لماذا لا يتعاطى الاهالى أدوية المستشفى أيها الرئيس بودرجا ؟» . فقال : « انهم يقولون انها لا تفيد » . فقالت : « بل انها تفيد . وسوف أبرهن لكم على ذلك ! » . فتطلع اليها فى اهتمام .

وفى هذه اللحظة طرق الاسماع صوت سيارة قادمة .. وما لبثت هذه السيارة أن توقفت عند نهاية السلم . وعندئذ صاح لوكومت وهو ينهض قائلا : «انه الاب جيلو» ..

***

وكان القادم قصيرا ،بدينا ، يرتدى قبعة بيضاء ،ويغيب قدميه فى نعلين خفيفين «صندل» .. وقد ترجل من سيارته

«الشيفروليه» ، والتفت الى الافريقيين مبتسما ، ثم أتجه الى لوكومت قائلا : « هنرى .. هناك على الدوام شىء جديد فى هذه البلاد » . فصافحه لوكومت قائلا : « هـذه مس كيد .. الممرضة الجديدة » . ثم قدمه اليها قائلا : «الاب جيلو يامس كيد » . فابتسم القس وهو يشـد على يدها قائلا : « لابد أن ضارب الطبل قد أخطأ اذ قال ان الدكتور بايكل .. » فبادرت راشيل قائلة : « بل هو على حق . لقد مات الدكتور بايكل فى الليلة الماضية ، بعد دقائق قليلة من وصولى » .

واحنى الاب جيلو رأسه ورسم علامة الصليب على صدره ، قائلا : « ياللأسف .. اننى لم أكن أعرفه جيدا ، ولكننى أتيت لارى ان كان بوسعى أن افعل شيئا » .

قالت راشيل : « لقد قال لى أن عنده ذبحة صدرية » ، ثم أشارت نحو شجرة «الليمبالى» وقالت : «سندفنه هنا ، هذا الصباح !» .

وفى هذه اللحظة ، استدار الرئيس بدرجا فجأة وانصرف . وذهبت راشيل لتراقب عملية حفر القبر ، تاركة لوكومت والاب جيلو يتحدثان . حتى اذا عادت بعد قليل ، قال لها الاب جيلو : « يقول لى هنرى انك تريدين البقاء هنا يامس كيد » . فابتسمت قائلة : « نعم . واظنك ستقول لى أن هذا مستحيل » .

فهز الأب جيلو رأسـه قائلا : « على العكس .. اننى أود لو تستطيعين البقاء ، فهـذه البلاد فى حاجة الى من يحبها ويخدمها ! »

فاندفعت قائلة فى حرارة : « اننى لسعيدة بأن يكون هذا رأيك أيها الاب جيلو » . فقال : « ان الحـاجة ماسة الى الكثير من العمل هنا عند أقدام الجبل » .

واذ أصبحت حفـــرة القبر تحت شجرة « الليمبالى » بالعمق المناسب ، تأهبوا لدفن الدكتور بايكل . فوضعوا جثته فى الصندوق ، ثم نقلوها الى القبر . وكان يقف هناك «كولو» و «جوتا» و «مزيمبا» و «كوزونجو» ، وسائق سيارة «لوكومت» ، وقد تجمع الاهالى بالقرب من الشجرة . وبعد أن قام الاب جيلو بالصـــلاة ، انزلوا الصندوق فى القبر ، وأهالوا عليه التراب ، ثم قفلوا راجعين .

وبعد الغـــداء ، قال مسيو لوكومت : « أعتقـــد اننا يجب أن نذهب يامس كيـــد ، فان المطر سيفســـد الطريق . . وسأرسل اليك أثنين من رجال الشرطة ، ارجو أن يصـــلا قبل المساء » .

ــ أشكرك . لا أريد أحدا من رجال الشرطـة يامسيو لوكومت !

ــ اننا يجب أن نحرس القبر بعض الوقت .

ــ أعرف ذلك وسنحرسه نحن . . سيحرســه كـــولو والباقون .

ــ ولكن . .

بيد أن الاب جيلو وضع يده على ذراع لوكومت قائلا : « ان المس كيد قديرة على أن تدبر أمورها ياهنرى » .

وقالت مس كيد : **« هناك سؤال واحـــد لم أوجهه اليك يامسيو لوكومت ... هل لديك أى فكرة عن السبب الذى من اجله كان أهالى دايبيلا يريدون أن يموت الدكتوربايكل؟»**

فتلجلج قليلا ، ثم قال : « كلا . يا مس كيد » . . وأحست أنه يكـــذب . وما لبث أن خرج مستصحبا الاب جيـــلو ، فاتجهت الى شجرة « الليمبالى » ، وهناك وجـــدت كولو يقف بجوار القبر حاملا فى يده حربة طويلة من حراب الصيد ، فقالت له : « من طلب اليك أن تمسك حربة ياكولو؟ » .

قال : « الحاكم الابيض يامدام » ، فابتسمت له قائلة : «استرح قليلا ياكولو ، وتعال عندى لتتناول بعض الطعام» .
وتبعها تحت وابل المطر الى المنزل ، حتى اذا بلغا الشرفة ، قالت له : « هل يعتقد الاهالى ان الدكتور بايكل مات عقابا له ياكولو ؟ » . قال : « نعم يامدام » . قالت : « ماذا فعل ليستحق العقاب ؟ » . فصمت طويلا ، ثم قال : « لقد حاول أن يتسلق الجبال يا مدام » !

- ٦ -

• **وظلت** « راشيل » فى الايام التالية تفكر فيما قاله لها كولو عن اللعنة التى تحل بمن يتسلق الجبال ، وقد بدأ الخوف يتملك قلبها وهى وحيدة ، بلا زوج ولا رفيق . وكان قلقها يزداد يوما بعد يوم . بيد أنها كانت تقاومه بكثرة العمل . فقامت ــ بمساعدة كولو وجوزونجو ومزيمبا وجوتا ــ بتنظيف المستشفى .. **وراحت تنتظر حضور المرضى ، ولكن .. دون جدوى . ولقد حاولت ان تتقرب الى الاهالى ، غير أنهم كانوا يظهرون لها العداء ويديرون لها ظهورهم** . وقد ذهبت الى الرئيس بودرنجا فى بيته عسى أن يمهد لها الطريق ، ولكنه قابلها ببرود ، فخرجت من عنده يائسة . ولم تعد تثق الا فى كولو ، الذى كان يبدى نحوها اخلاصا وحبا ، وكان يقوم وحده بحراسة قبر الدكتوربايكل طوال الليل ..
وكان الجميع يعرفون السبب فى هذه الحراسة : فان من عادة القوم هنا أن ينبشوا قبر العدو ، ويخرجوا جثمانه ليمثلوا به ، تشفيا منه . ولذلك أمر مسيو « لوكومت » بأن تستمر الحراسة أسبوعين كاملين .
وفى ذات ليلة ــ وكان قد مضى على موت الدكتور بايكل

اسبوع ـ اخذت راشيل قدحا من القهوة الساخنة ،وذهبت الى كولو وهو فى حراسة القبر ، وجلست هناك الى جانبه قائلة له :

ـ انه ليل طويل ياكولو .

ـ نعم يا مدام .

ـ بعد أسبوع ستنتهى الحراسة .

ـ نعم يامدام . هل ستكونين هنا يا مدام ؟

ـ سأكون هنا ياكولو .

ـ اننى سعيد بهذا .

ـ ان المستشفى يفتقد المرضى ياكولو .

ـ نعم يامدام .. وقد فكرت فى ذلك طويلا . وقررت ـ اذا لم يحضر أحد ـ أن أكون أنا المريض وتتولين علاجى ، حتى اذا شفيت أقبل المرضى على المستشفى .

ـ ولكنك لست مريضا ياكولو .

ـ سأتظاهر بالمرض ، ويقول الجميع : «أن كولو سيموت». وعندئذ تعطيننى الدواء فأشفى ، ويقول الجميع « ان المدام أعطت كولو دواء أنقذه من الموت » . وبعد ذلك يأتى الجميع ليأخذوا منك الدواء .

ـ لا ياكولو . هذا كذب . ولا يجدر بالانسان أن يصنع شرا لكى يحقق خيرا . ان ذلك يشبه قصة الرجل الذى رأى أطفاله فريسة للجوع فى زمن الضنك ، فسرق شاة من جاره وذبحها وجاء بها الى زوجته لتطهوها . فما رأتها حتى شهقت قائلة : « ماذا فعلت ؟ » . وقد كان ثمة شىء لا يعلمه ، وهو أن الجار كان يعطى زوجته لبن الشاة لتغذى به أبناءهما . وقد عاش الاطفال بضعة أيام على لحم الشاة، ثم ماتوا من الجوع !

ــ انها قصة جميلة يامدام .. ولابد أنك تعرفين قصصا إخرى جميلة .

ــ نعم ياكولو .. وسنجتمع كلنا بعد الفداء لأروى لكم كثيرا من القصص .. وفوق ذلك سأعلمكم القراءة والكتابة .. هل تحب أن تقرأ وتكتب ياكولو ؟

فقال فى انفعال : « نعم يامدام .. أحب ذلك » .

***

وفى اليوم التالى ، جلست بعد الظهر تحت شجرة « الليمبالى » ، وقد أحاط بها كولو وكوزونجو وجوتا ومزيمبا ، وبدأت تعلمهم اللغة السواحلية . قالت لهم : **«أنتم البانتو . وبانتو معناها الشعب . وأنتم شعب عظيم».**

قال كولو : « هل نحن شعب عظيم حقا يامدام ؟ .. ولكن جلدنا أسود » .

فقالت : « ان هذا غير ذى بال البتة ياكولو . ففى البداية كان الكل اخوانا . كانوا كلهم أبناء أب واحد ، هو الله . هل سمعتم عن الله ؟ »

ونظروا الى الارض طويلا ، ثم قال كولو أخيرا : « لقد سمعنا عن الله يا مدام . انه يقيم فى الجبال » .

قالت : « كلا . انه يقيم فى كل مكان ياكولو . وان لم يكن فى وسع أحد أن يراه . وهو يستمع الى كل الناس وينظر الى قلوبهم ليرى ما بها . »

وهكذا ظلت تعلمهم القراءة والكتابة والدين . وكان كولو أكثرهم سرعة فى الفهم وشوقا الى المزيد من المعرفة . وقد كان يحب المدام .. يحب أن يراها سعيدة ، ويجتهد فى أن يبعد عنها كل ما يحزنها أو يفزعها ، لاسيما قصة الجبال ولعنتها ، مع أنها كانت دائمة السؤال عنها .. وكان

يعتزم أن يفضى اليها ــ ذات يوم ــ بالقصة ، ولكن ليس الآن ، فهو لا يريد أن يخيفها ، ولا أن يفعل ما قد يدفعها الى أن ترحل سريعا .. **فلو أنها ذهبت ، فسيذهب معها . سيتبعها الى آخر العالم ، كى يخدمها ، ويحميها . انه لا يريد أن يترك هذه الارض ، أرض آبائه .. ولكنها اذا ذهبت ، فسيذهب معها !**

وذات يوم ، لمح كولو شخصا يقترب منه فى خطوات بطيئة ، وهو منكس الراس . وما لبث أن عرفه . كان «وانجا» ، وقد ارتدى سرواله القصير ، الذى كان آخر ما تبقى له من الخدمة العسكرية .

وتطلع «وانجا» الى « المدام » فى مزيج عجيب من الضراعة والريبة ، فقال له كولو : « مرحبا بك ياوانجا ! » . ثم التفت الى المدام قائلا : « هذا هو وانجا يامدام .. لقد كان يؤدى خدمته العسكرية ، وعاد أخيرا » .

فاندفعت «المدام» نحوه ، وشدت على يده قائلة : « اننى سعيدة برؤيتك ياوانجا .. هل يمكننى أن أقدم لك أية مساعدة ؟ »

ونظر وانجا الى الارض ، ثم تطلع اليها قائلا : « اننى لا أحب هذا المستشفى . انه ليس كالمستشفيات الحسنة التى رأيتها فى الاماكن الاخرى . ان ذلك الطبيب الابيض قد قتل ابنى .. أعطاه دواء رديئا فمات » .

ــ لعل أحدا لم يكن يملك لابنك شفاء ياوانجا .

ــ كان يمكن شفاؤه فى (ستانلى فيل) . لقد كنت هناك . كنت جنديا . وأنا آسف لاننى عدت .

ــ ربما نستطيع أن نجعل هذا المكان أفضل .

ــ هذا مكان ردىء . أنا آسف لاننى عدت . وها هو ذا ابنى الآخر مريض كذلك ، وأظنه سيموت ، لاننى رأيت

رجلا يموت بهذا الداء ذات مرة . ان أولئك الحمقى أمثال «موانجو» يستطيعون شفاء ساق مرضوضة أو ذراع مكسورة، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا شيئا لابنى . فهل تستطيعين أنت يا مدام ؟

***

وكانت تلك فرصة عظيمة . ولكنها قالت : « لست طبيبة، وانما انا ممرضة » .. وعندئذ رأت اليأس يطل من عينيه، فاستطردت تقول : « ولكننى سألقى نظرة على ابنك » .

ثم أسرعت الى المنزل ، وجاءت بحقيبة الدكتور بايكل ، فتناولها منها كولو عند نهاية السلم ، وسار خلفها ، يتبعه وانجا وكوزونجو ومزيمبا .. وانتشر الخبر فى القرية كلها، فتجمع النساء والرجال والاطفال وساروا فى موكب خلفهم .. حتى اذا تلفتت المدام خلفها ، شعرت ببرودة الثلج تسرى فى جسمها . وعندئذ ابتسم لها كولو مشجعا ، وقال :

« انهم جاءوا ليروا العلاج يا مدام .. حين توفقين فى شفاء الطفل سيحترمونك ويأتون اليك برضاهم » .

ووصلوا أخيرا الى كوخ وانجا ، فتقدم «وانجا» مفسحا الطريق للمدام الى الداخل .. وهناك كانت زوجته منكمشة فى الظلام ، فما رأت القادمين حتى ولولت وغطت رأسها بردائها .

وكان الطفل راقدا فى ركن من الاركان .. كان صبيا نحيفا فى نحو السابعة من عمره يسمى «تيبو» . وقد رقد على جنبه ، وعيناه مفتوحتان شاحبتان فى الضوء الخافت الآتى من الباب .. وكانت عليه مسحة الموت ، اذ لم يكن يئن أو يبكى ، وانما كان ينتظر فقط ، بالطريقة التى ينتظر بها الاطفال الموت حين يغدو مؤكدا . فركعت بجانبه وهى

تبتسم له ، وراحت تجس بيدها بطنه .. حتى اذا اقتربت يدها من جنبه ، صرخ صرخة نافذة ، فنظرت الى وانجا قائلة : « ان ابنك مريض جدا . ان فى بطنه شيئا خبيثا ، وسوف يموت حتما اذا لم يستأصل هذا الشيء .. **وأنا لم يسبق لى أن قمت بهذا العمل أبدا . أنا أعرف ما يفعله الطبيب ، ولكننى لم أفعله بنفسى . واذا لم أفعله الآن ، فسيموت الطفل قطعا . فهل تريدنى أن أباشر هذه العملية ياوانجا ؟ »**

ووقف وانجا يحدق فيها برهة ، ثم رمق ولده طويلا ، ومالبث أن قال أخيرا : « نعم يامدام .. باشرى العملية ! » . فالتفتت الى كولو بجانبها قائلة : « أسرع ياكولو .. قل لكوزونجو ومزيمبا أن يحضرا محفة من المستشفى فى الحال » . فأسرع كولو اليهما — وكانا يقفان لدى الباب — وطلب اليهما احضار المحفة . ولكنه — بعد أن فعل ذلك — تنبه الى دقة الموقف ، وود لو يكلم المدام ، غير أن الوقت كان قد فات .. ود لو يقول لها أن تخبر وانجا بأن الطفل سيموت : فاذا مات لن يكون ثمة لوم عليها . أما الآن ، فستكون هى الملومة اذا مات الطفل !

وفى تلك اللحظة وضعت يدها على ذراع كولو قائلة له : **« أنت الوحيد الذى يمكننى أن أعتمد عليه ياكولو ، فهل تفعل كل ما أقوله لك تماما ؟ »**

— نعم يامدام .

— اذن أسرع الى المستشفى ، واملأ الدورق بالماء ، وضعه على النار ثم انتظرنى هناك !

فانطلق يجرى ، وفعل ما أمرته به . ثم وقف ينتظر عند باب المستشفى .. حتى أقبلت المدام ، وخلفها كوزونجو

ومزيمبا يحملان الطفل على المحفة ، وقد تقاطر الأهالى على المستشفى يصيحون ويثرثرون .

وجاءت بأدوات الجراحة ، وقبل أن تشرع فى العمل ، وقفت واغمضت عينيها وراحت تصلى ، فأدرك كولو أنها تخاطب الله — الآب — ويسوع المسيح ، فأغمض هو عينيه كذلك . وما لبث — لدهشته البالغة وسعادته العظيمة — أن رآهما أمامه بوضوح . رأى الله الآب يجلس تحت شجرة البيمبالى ويبتسم للمسيح الذى كان واقفا بجانبه يتحدث اليه .. فتوجه اليهما وقال لهما فى ضراعة عظيمة: « أتوسل اليكما أن تساعدا المدام على شفاء تيبو ، لأنها ستتحطم كالعشب لو أنه مات » .. فابتسما له ، وأوما كل منهما برأسه علامة القبول ، ثم غابا عن ناظريه ، فأفاق وفتح عينيه .. وكانت المدام تنظر اليه فى دهشة ، حتى اذا تنبه ، قالت له : « ما خطبك ياكولو ؟ ماذا جرى ؟ »

فقال وهو يرتعد : « انه الله الآب ، ويسوع المسيح يامدام .. لقد رأيتهما وتحدثت اليهما و .. »

فصاحت وهى تحملق فيه كأنها خائفة : « ماذاتقول؟» .. لقد ظنته أصيب فجأة بالجنون !

فرفع يديه فى شبه توسل قائلا : « لقد رأيتهما يامدام . وسينتهى كل شىء بخير . لقد قالا لى ان كل شىء سينتهى بخير » .

وطفرت الدموع من عينيها على الرغم منها ، وقالت له : « اننى سعيدة لانك رأيتهما ياكولو .. ! » وصمتت هنيهة ثم قالت : « والآن ، فلنفكر فى العمل الذى علينا أن نقوم به ، فحسب » .

وافهمته ما ينبغى أن يفعل . ثم بدأت عملها فى هدوء ، ففتحت بطن الطفل ، وراحت يداها تعملان فى الخليط الذى

بدا من أحشـــائه ، حتى امسكت أخيرا بجزء بارز منها فقطعتـــه بالمبضع ، ثم خاطت البطن ، ومسحت الدم الذى كان يلطخ جسم الطفل .. وتناولت «السماعة» ، وراحت تنصت الى نبضات قلبه ..

وكان يتنفس .. اذن فقد انتهى كل شىء بخير ، كما سمع كولو فى رؤياه ؟ ! .. ورفعت «السماعة» عن أذنيها ، وراحت تجفف عرقها ، ثم ألقت برأسها بين يديهـــا ــ فجأة ــ وانفجرت باكية . فصاح كولو قائلا : « يامدام . يامدام . ان تيبو بخير » .

فقالت وهى تبكى : « نعم . أعرف ذلك ! »

فلماذا كانت تبكى اذن ؟ !

- ٧ -

• ظل المطر ينهمر ثلاثة أيام بغير انقطاع ، حتى تحولت الارض كلها الى أكوام من الوحل . وفى مساء اليوم الثالث وقفت سـيارة أمام المستشفى ، ونزل منها لـوكـومت . فما لمحته راشيل حتى اندفعت نحوه . وكان يتجه اليها ويداه فى جيبه ، وقد أحنى رأسه تحت وابل المطر . لقد كانت تلك رابع زيارة له منذ موت الدكتور بايكل قبل ثلاثة أسابيع .

وحدست انه لابد ــ وقد جاء فى هـذا الجو الشنيع ــ يحمل أنباء هامة . ولم تكن تريد أن تسمع هذه الانباء ، لانها توقعت الا تعدو دعوة اليها من الارسالية كى تعود .

وصح حدسها . فما ان وضع « لوكومت » يده فى يدها ، حتى تطلع اليها قائلا : « احزمى أمتعتك يامس كيد ، فانك ستذهبين معى فى الحال ! »

وعبست اذ راته يكلمها بلهجة ضـــابط الشرطة .. ثم ـ بابتسامة مفتصبة ـ قالت له : « لقد عثرت يامسيو لوكومت على زجاجتين من الكونيـــاك بين أمتعة الدكتـــور بايكل . وأعتقد أنك محتاج الى شىء من ذلك ! » . فلانت صرامته ، وابتسم قائلا لها : « انك يامس كيد سيدة رائعة ، وسأشرب كأسا من كونياكك » .

وهنا تقدم كولو اليها قائلا فى جزع : « هل أنت مزمعـــة الرحيل يامدام ؟» . فأجابته قائلة : « كلا ياكواو ، لن أرحل ! » .

فتطلع اليها لوكومت قائلا : « كيف ذلك يامس كيد؟» قالت : **« ان عندى مريضا يامسيو لوكومت ، ولا يعقل أن أتركه واذهب معك .. وعلى ذلك فلنكف عن تبـــادل كلام لا جدوى منه ، حول هذا الموضوع »** .. فوجم وقال فى دهشة : « كلام لاجدوى منه ؟ » .. لم يكن قد سمع أحدا ـ من قبل ـ يخاطبه بهذه اللهجة . بيد انه أستطرد قائلا : « ولكن الكلام عن الرحيل الى روجيرى ليس كلاما بلا جدوى يامس كيد . لقد تكبدت مشقة لا توصف لكى أصل الى هنا ، وقد فاضت الانهار وتلطخ الطريق بالوحل . فاذا لم تأتى معى اليـــوم ، فلن أستطيع أن أراك لمـــدة أسابيع » .

فقالت راشيل فى هدوء : « ولكن عندى مريضا » .

قال : « مم يشكو المريض ؟ »

قالت : « انه طفل صغير يحتاج الى العناية بعد عملية الزائدة الدودية . »

فاتسعت عيناه وتراجع خطوة الى الوراء وهو يقول فى ذهول : « عملية الزائدة الدودية ؟ .. ولكن يا الهى يامس كيد .. هل تعنين انك .. »

ــ نعم ، أنا أعلم اننى غير مصرح لى باجراء العملية .. ولن أجريها مرة أخرى .. ولكننى كنت مضطرة الى ذلك !

فتردد قليــلا ثم قال : « أصفحى عنى ! » .. ثــم راح يبحث فى جيوبه واخرج بضعة خطابات ، ناولها اياها قائلا : « لقد وصل بريدك أخيرا » . فاختطفت الخطابات منــه ، وراحت تقلبها .

كان أثنــان منهــا من مركز الارسالية ، ولكنهما لم يكونا يحملان أسم الدكتور سبنسر . وكان الخطاب الثالث من الولايات المتحدة . وما لبث لوكومت أن قال : « اننى واثق من أنك تريدين قراءة الخطابات ، ولذلك سأذهب لاطلب الى بودرجا أن يأمر رجاله بضرب الطبول . فسأحتاج لمعونة الرجال فى كل القرى المحاذية للطريق ، كى يمهدوا سبيلا لسيارتى حتى تبلغ روجيرى . وبعد ذلك أجىء لمداعبة تلك الزجاجة من كونياكك يا مس كيد ! » . ثم تركها وانطلق تحت وابل المطر .

وفضت غلاف أحد الخطابين اللذين جاءا من الارسالية ، ورمقت التاريخ ، فاذا به قد كتب منذ أسبوعين ، والتوقيع « المخلص دائما : رالف مورجان » .. وقد راحت حدقتاها تتسعان وهى تقرأ :

« عزيزتى راشيل .. لقــد استدعى الدكتور سبنسر الى نيويورك على عجل ، بعــد سفرك بيومين ، لحضور أحد المؤتمرات . ومن ثم اضطلعت بعمله أثنــاء غيابه . وقــد أنبانى قبل سفره بأنك ينبغى أن تمكثى فى دايبيلا الى حين عودته . الا أن موت الدكتور بايكل قد جعل الامر يختلف . ولذلك أعتقد اننى أتصرف بحكمة اذ أطلب اليك أن تغلقى المستشفى فى دايبيلا باسرع ما يمــكن وتعودى الى هنا .. »

أبدا ! .. هل تقبل الهزيمة بعد أن بدأت تؤدى رسالتها

بالفعل ؟ .. أبدا ، لن يكون ذلك . فمـاذا يعلمون هناك فى الارسالية عن حاجة الاهالى فى دايبيلا ؟ انها لن تعود . لن تعود .. !

وفضت الخطـاب الثانى ، فكان مؤرخا بعد خطـاب « رالف » بيومين .. وكان من « أديث بارنى » ، زميلتها فى مركز الارسالية ، وخير صـديقة لها فى أفريقيا ، وقـد قالت لها فيه : « اننا جميعا نفتقدك هنا » .. ثم استطردت : « لا تتعجلى مغـادرة دايبيـلا ياراشيل ، لان الامور هنا لا تجرى كما ينبغى . وسيكون صعبا عليك المكوث هنا .. وأنت تعلمين ماذا أعنى ! .. حبذا لو بقيت فى دايبيلا أطول مدة ممكنة .. على الاقل حتى يعود الدكتور سبنسر .. صلواتى معك ! »

***

أظلمت الدنيا فى عينيها ، فماذا تفعل ؟.. يجب أن يكون ثمة مخـرج .. واستبدت بها الحيرة ، فقالت فى نفسها : « ليساعدنى الله ! » ثم غادرت المستشفى ، حتى اذا بلغت المنزل وهدأت بعض الشىء ، فضت غلاف الخطاب الثالث ، فاذا به من مسز فيليس هاريكوت ، وهى صـديقة لها من الولايات المتحدة .. وكانت تثرثر فيه كعادتها ، وتتحدث عن الاحوال الجارية فى مجتمعها .

وجلست راشيل تردعلى الخطابات .. وبينماهى مستغرقة فى ذلك دخل لوكومت ، وقد ابتل بالمطـر ، فتطلعت اليه قائلة : « نعم . الكونياك ! » . فابتسم وارتمى على مقعد مقابل لها على المائدة . وعندئذ قامت وأتت بزجاجة الكونياك وكأس واحدة ، وتطلعت اليه قائلة :

ـ هل تشرب الكونياك بالماء يامسيو لوكومت ؟

ـ كلا . ولكن أين كأسك ؟
ـ انا لا اشربه .
ـ أبدا ؟
ـ نادرا .. اننى لا أحبه .

ثم واصلت الكتابة ، بينما نزع سدادة الزجاجة ، وراح يشرب فى صمت . وبعد أن انتهت من مهمتها ، صمتت برهة ، ثم قالت له : ((اننى اود يا مسيو لوكومت أن أوليك ثقتنى ، وأن أتخذنا منك حليفا لى)) .. وأفضت اليه بقصة رالف والدكتور سبنسر ، وعلة مجيئها الى هنا ، ثم أنبأته برحيل الدكتور سبنسر ، وشرحت له السبب فى أنها لا تستطيع العودة الى مركز الارسالية ... وأردفت قائلة انها كتبت خطابا الى الدكتور سبنسر والى احدى صديقاتها ذوات النفوذ فى الولايات المتحدة ، تعرب لهما عن رغبتها فى البقاء فى دايبيلا ، وختمت حديثها قائلة فى ثقة : ((وأعتقد انهما سيوافقاننى !))

فصمت برهة ثم قال : ((هذا الدكتور الذى تتحدثين عنه يامس كيد وكأنه ارتكب جريمة نكراء لانه أحبك .. هل هو الشىء الوحيد الذى يدفعك الى البقاء فى دايبيلا؟))

ـ كلا . انه مبرر ثانوى . وأما السبب الحقيقى ، فهو اننى أحب هذا المكان ، وأعتقد أن ثمة عدلا عظيما يمكن انجازه هنا . ولذلك أريد البقاء .

ـ وحيدة ؟

ـ وحيدة اذا لزم الامر . ولكننا فى حاجة الى دكتور .

فأفرغ لوكومت كأسه وقال : ((اذن لنفكر على هذا النحو . لنفرض أن ذلك الدكتور ـ الحسن الذوق وان يكن سيىء الحظ اذ وقع فى حبك ـ جاء الى دايبيلا .. ؟!))

فقالت فى انزعاج : « ولكنه لا يستطيع .. انه مسئول عن .. »

ـ هذا مجـــرد افتراض يامس كيد .. افرضى انه جاء الى هنا .. فهل تبقين ؟

ـ **نعم أبقى .**

ـ وحدك .. معه ؟

ـ نعم .

ـ ولكن ماذا عن عفتك ؟

فابتسمت قائلة : « يمكننى أن أرعاها ، فليس هذا هو الشيء الذى يستغرق اهتمامى .. ليس يهمنى سوى اننى اعتقد أن ثمة عمــلا اعظم ، وغرضا أسمى ، يدعوننى الى البقاء هنا .

ـ عمل .. غرض .. انك تستعملين هذه الكلمات كثيرا يامس كيد .. هل لى أن أدعوك راشيل ؟

ـ طبعا .

ـ ولك أن تنادينى باسم « هنرى » ، اذا اردت ذلك .

ـ حسنا .. يا هنرى

ـ اذن اسمعى ياراشـــيل .. ان غرفة نومى مكدسة بالكتب ، وقد قرأت كثيرا جدا . ان الشيئين الوحيدين اللذين اجـــد فيهمـــا متعتى ، هما القـــراءة والسير فى الغابات .. ويمكن أن أقول اننى أصبحت فيلسوف غابات .. **بيد أننى لا أريد أن أضايقك ، ولن أحاول تحليل شخصيتك ، ولن أقول حتى أنك تبالغين فى تقدير ما تسمينه عفتك .. أريد فقط أن أقـــول أن ثمة أماكن كثيرة جدا فى افريقيـــا أكثر استعدادا للرقى من دايبيلا .**

ـ ولكن دايبيلا بها مستشفى ،وهذا هو مكانى الطبيعى .. كما أن دايبيلا هى الميدان الحقيقى لتلك المعركة التى تدور

تحت أسماء مختلفة : معركة البيض ضد السود ، أوالمدنية ضد البدائية .. لذلك أريد البقاء هنا ، وليس لان رجلا هناك فى الارسالية يريدنى أن أمضى معه الى الفراش !

وافحم لوكومت ، فلم يجب بكلمة ، ومن ثم استطردت : « والآن أريدك أن تصارحنى ياهنرى .. لماذا ينفر منا أهالى دايبيلا ؟ »

***

ورفع كأسه ، وتجرع ما فيها ، ثم قال : «انهم قوم شرسون متكبرون ، كما أن آلهتهم شرسة متكبرة .. وقد جئت الى هنا منذ سنوات بعيدة ، حين كنت أنت لا تزالين بعد طفلة صغيرة ، وكافحت بمفردى أولئك المتوحشين .. جئت وقد أعطونى عددا من الاوروبيين وحفنة من الافاقين الافريقيين ، وقالوا لى : « دبر الامور هنا يا لوكومت » .. وكنت شابا صغيرا يومذاك فى افريقيا ، ولم أكن أعرف سوى الاساليب الاوروبية ، تلك الاساليب المدونة فى الكتب .. ولكننى ورفاقى سرعان ما تبينا اننا نرتاد طريقا وعرا . فقد رفض الاهالى سلطاننا عليهم ، وجابهونا بعداء مرير ، فكان علينا أن نبنى لانفسنا سدودا من الحسك فى الليل ، كى نتقى رماحهم وحرابهم وبنادقهم .. **حتى اذا قتلوا واحدا منا ، احرقنا فى مقابله قرية بأسرها .. وهكذا ظللنا نتبادل الانتقام ، فلم تهدأ العداوة بيننا قط .. أولئك هم الذين تتحدثين بصددهم عن الواجب والغاية يامس كيد ».**

لم يبد عليها أنهـا اقتنعت بمنطقه ، ولكنها لم تشأ أن تستمر فى معارضته ، ومن ثم غيرت موضوع الحديث قائلة : « ما هذه اللعنة التى يتحدثون عنها يا هنرى .. لعنة الذين يحاولون تسلق الجبال ؟ »

فنظر اليها فى حدة قائلا : « ماذا ؟ .. اذن فقد عرفت

امر هـــذه اللعنة » .. وتردد قليلا ثم قال : « لا ادرى . لقد حدث أن جاءت حمـلة انجليزية الى هنا منذ امد بعيد ، قبل ان اجىء انا .. واعتقد انها سببت بعض الاضطراب » .

ـ هل تعـــرف أن الدكتور بايكل حاول تسلق الجبال ؟

ـ نعم ، عرفت ذلك من قرع الطبول .

ـ وهل كان على علم بامر اللعنة ؟

ـ لم اناقشه فى ذلك ابدا .. لقد جئت لاراه حين أعلنت الطبول عودته ، وقد كان مريضا ، ولكنه لم يذكر لى شيئا عن علة مرضه .

ـ وأنت ؟ ألم يخطر ببالك مرة أن تتسلق الجبال ؟

ـ فكرت فى ذلك حين كنت أصغر سنا .. ولكن الفرصة لم تتح لى أبدا .. والآن انا كهل لا أصلح لشىء !

وبدا عليه الكمد وهو يقول ذلك ، ونهض على قدميـه وهو يستطرد قائلا : « اننى لا أصلح الآن الا لقراءة الكتب والتجوال فى الطرقات وتوزيع العدالة على الخمسين ألفا من السود الذين تحت سلطتى » .

ثم هم بأن يقـول شيئا ، ولكنه كبح نفسه واحمر وجهه فجأة .. وما لبث أن جازف قائلا ، وهو يتطلع الى المكان من حوله : « لكم يكون ممتعا قضاء الليل هنا معك ! »

فقالت : « على الرحب والسعة .. سنعد لك فراشا ، وفى الصباح ... »

بيد انه قاطعها وهو يبتسم قائلا : « آه ياراشيل .. انك لا تفهمين .. »

وعندئذ فهمت ، فتضرج وجهها بالحمرة ، ولكنها لم تحفل .. فقد كان رجلا ظريفا !

واستطرد قائلا : « اننى رجـل كهل .. كهــل .. واننى لأشعر بالحسرة على نفسى فى هـــذه اللحظة ، فلم يعد ثمة

ما أستطيع فعله غير أن أستقل سيارتى وأعود الى روجيرى » . ثم أقترب منها وهو يمد يده قائلا : « أعطينى خطاباتك لأبعث بها ، واكتبى قائمة بالأشياء التى تحتاجين اليها هنا ، كى أحضرها اليك حين أجىء مرة أخرى » . فكتبت له قائمة بما تريد ، وسلمتها اليه مع الخطابات ، فأخذها وهو يبتسم قائلا : « الى اللقاء ياراشيل » . وأسرع خارجا ..

***

ووقفت عند النافذة ، وقد استلفت انتباهها منظر الجبال ، التى سبحت فى هالة رائعة من الالوان . وفيما هى مستغرقة فى ذلك ، سمعت صوت كولو خلفها يقول : « هل تنظرين الى الجبال يامدام ؟ »

ـ نعم ياكولو . أننى أنظر اليها وكأننى أراها لأول مرة . لقد قلت لى ذات مرة أن مسقط راسك هناك عند سفح الجبال ياكولو .

ـ نعم . انه هناك يامدام .

ـ وهل تعتقد فى اللعنة التى يقولون انها تلحق بمن يحاول أن يتسلق الجبال ياكولو ؟

ـ نعم يامدام .

ـ حدثنى عن هذه اللعنة ياكولو .

وأشارت الى مقعد بجانبها قائلة له : « أجلس وحدثنى » .

ـ انهم يقولون ان الله يقيم بين قمم الجبال .. وقد حدث منذ سنوات طويلة أن جاء رجل أبيض من الغرب ليتسلق هذه الجبال .. وجاء معه بأثنين من البيض ، وبضعة رجال من السود يحملون الأمتعة . وقد اضطرب الأهالى هنا اضطرابا عظيما حين علموا أن الرجل الأبيض

جاء ليتسلق الجبال .. لم يكونوا يريدون هؤلاء الغرباء أن يزعجوا الله الذى يدير العالم فى سلام من مسكنه فى قمم الجبال . ولم يكونوا يريدون لفت نظره الى القوم الذين يعيشون أسفل الجبل حتى لا يثيروا غضبه عليهم . ولذلك اجتمع الرؤساء والسحرة هنا فى دايبيلا ، وراحوا يتشاورون . كانوا يعلمون أن حكامهم البيض يحكمون عليهم بالموت لو انهم قتلوا اى رجل أبيض . وكانوا عاجزين عن منع هذا المغامر من تسلق الجبال .. واذ تملكتهم الحيرة واستبد بهم الكرب ، تقدم رجل حكيم وشجاع ، هو الابن الوحيد لأقوى الرؤساء وأعظمهم نفوذا ، وقال انه سيحول دون وصول الرجل الأبيض الى القمة ! .. وكان اسمه « بولامبو » . وقد تطوع ــ فى سبيل ذلك ــ بالمساهمة فى حمل أمتعة الرجل الأبيض ، بغية أن يعمل على تضليله والحيلولة دون بلوغه غايته . حتى اذا بدأوا الصعود ، هبت العواصف وزمجرت الريح . **ففهم بولامبو وزملاؤه السود أنها علامة على أن الله قد لمحهم يقتربون ، وأنه قد غضب لذلك .**

وما لبثت الأمطار أن انهمرت فى سيول جارفة ، وهم يشقون طريقهم بين ادغال البامبو ــ حيث تعيش الغوريللا ــ ويخوضون المستنقعات الشاسعة التى تتخلل أشجار الخلنج ، وقد أحاطت بهم الزهور البرية الفاقعة الالوان .. وبينذاك سمعوا صوتا رهيبا ، قال الرجل الابيض انه دوى الرعد . ولكن بولامبو وزملاءه كانوا يعرفون أنه صوت الله يتكلم فى غضب لأن الآدميين جرؤوا على أن يصعدوا الى حيث يسكن وينظروا اليه . ومن ثم قرر بولامبو أن يفعل شيئا يحول به دون غضب الله على الساكنين فى أسفل الجبل . وسرعان ما لمح ممرا ضيقا يشرف على

هوة سحيقة لا قرار لها ، فتقدم الجماعة الى هـــذا الممر .. وما ان بلغوا منتصفه حتى هوى بمن كانوا عليه ، فتساقطوا وصيحاتهم تملأ شعاب الجبل . **ولكن البيض تشـــبثوا بصخرة على حافة الهــوة ، وتمكنوا من الوقوف عليها ، ثم القوا بحبالهم الى الباقين فانتشلوهم واحدا واحدا ، ماعدا بولامبو .. فقد مدوا اليــه الحبل حتى أصـــبح فى متناول يده ، ولكنه لم يمسكه ! ..**

وراحوا يحثونه على الامساك بالحبل ، ولكنه ظل ساكنا لا يتحـــرك . ومن ثم راح البيض يسبونه ، وراح الســـود يتوسلون اليه أن ينقذ نفسه ، قائلين له انه سيكون أعظم رؤسائهم ، وانهم أحوج اليه منهم الى أى شـــخص آخر . بيد انه كان ينظر اليهم فى هدوء دون خوف أو أسف أو بغضاء . فعرفوا عندئذ انه لن يمد يده الى الحبل أبدا ، وان لم يعرفوا سبب ذلك . وما لبث أن تطلع اليه واحـــد منهم ـــ وكان أحبهم الى قلبــه ـــ قائلا : « بـــولامبـــو .. يابولامبو العظيم .. أعطنا كلمة واحدة نعـــود بها ! » . وفى هـــذه اللحظة تكلم بولامبو ، وقد بلغتهم كلمـــاته شديدة الخفوت من أعمـــاق الهوة ، قائلا : « جوانا ـــ بنـــدانا ـــ سيمهانا » ! .. ثم سقط فى قاع الهوة وغاب عن الانظار ..

وكانت راشيل تعلم أن كلماته تعنى باللغة السواحلية : **« أعرفوا بعضـــكم بعضا .. أحبوا بعضـــكم بعضا . ليصفح بعضكم عن بعض » ..**

واستطرد كولو قائلا : « وكم كان حزن الأهالى عظيمـــا حين عاد الرجال يهرولون من الجبال ، صائحين بأن بولامبو قد مات .. فراح الرجال يبكون ، والنساء يولولن فى دايبيلا . وقد استحضر السحرة روح بولامبو فقـــال لهم انه صب لعنته على كل من يحاول تسلق الجبـــال أو الاقتراب من

مسكن الله .. هذه هى قصة اللعنة يامدام . فكل من يجرؤ على الصعود الى قمة جبال القمـر ، يعرض جسمه للآلام الساحقة ، وتسقط روحه فى جحيم العذاب الأبدى ! »

القسم الثانى

- ٨ -

• فى يوم من أيام ينـاير التالى ، كاد لوكومت يجن ، حين عرف ما حدث . وقال أن هذا كان أسوأ يوم فى حياته منذ سنين طويلة ..

ففى ذلك الصباح ، كان يرأس محكمة (روجيرى)، وعيناه نصف مغلقتين ، وهو لا يكاد يسمع أقوال الشهود الذين أمامه . ثم لم يلبث أن بدأ يصدر من فمه صفيرا خافتـا ليستعين به على الملل الذى اخذ يسيطر عليه .

وفيما هو يدير عينيه حوله ، لمح الاب جيلو يقف عنـد مدخل دار العدالة التى لم يكن لها جدران ، وهو يومىء اليه بسبابته ، كأنما يقول له : « أريدك لكلمـة ! » . وفى الحال انتصب لوكومت واقفا وهو يقول: «رفعت الجلسة» . فوقف كل الذين كانت المحكمة تزدحم بهم . واتجه لوكومت رأسا الى الأب جيلو .. فما بلغـه ، حتى وضع هذا يده على ذراعه قائلا : « هنرى .. هل علمت بالنبأ الذى جاءت به الطبول هذا الصباح ؟ » . فحملق فيه لوكومت قائلا : « أى نبأ ؟ »

قال الاب جيلو : « ان مس كيد قـد بدأت اليوم تتسلق الجبال » .

وانطلق لوكومت يسب ويلعن قائلا : « يجب أن نمنعها من مواصلة مغامرتها .. والا فان الموت فى انتظارها ! » .

ــ هل تؤمن ياهنرى باللعنة التى يزعمها الاهالى ؟

ــ لا أدرى .. ولكننى على الأقـل لا أريـد أن تقتلهـا الضباع ، أو تضل سبيلها فى شعاب الجبل .

ثم صاح قائلا : « فرانسوا .. ارسل الى واتو » .. وكان « واتو » أبرع قصاص أثر فى المنطقة كلها . فذهب فرانسوا يجرى ، ثم لم يلبث أن عاد مهرولا يقول فى يأس : « ان واتو مريض ياكولونيل » .

— أنهضه من مرقده يافرانسوا ، فاذا لم يمكنك ذلك ، فضعه فى مؤخرة السيارة ، فان طريق دابيبلا الوعر سيوقظه حتما .. **وضع معه بندقيته ، ومائتى رصاصة ، وزادا يكفى أسبوعا له ولاثنين من السائقين وواحد من الجنود ! .. سنرحل بعد نصف ساعة ، ولن تكون هناك محكمة الى حين عودتى !**

وهنا وضع الأب جيلو يده على ذراع لوكومت قائلا : « أود أن أذهب معك ياهنرى » . فصمت الحاكم قليلا ، ثم قال : « لنواجه الأمر ياجورج .. أنك لم تخلق لتسلق الجبال ، وأما أنا فسأتسلق » . فابتسم الأب جيلو وقال : « قد تكون خلقت لذلك ياهنرى .. ولكن تلك الخليقة قد طال استهلاكها ! » . فقال لوكومت متخاذلا : « انك على حق ! » . واستطرد الاب جيلو قائلا : « ومع ذلك ، فلست أنوى أن أتسلق الجبال ، ولكننى أريد فقط أن أتبعك .. كمراقب » .

— اتبعنى اذن ياجورج ..

ودخل لوكومت منزله متعجلا ، فبدل ملابسه ، وأخذ مسدسه ومائتى رصاصة ، وأسرع الى سيارته ، التى مالبثت أن انطلقت من (روجيرى) تتبعها سيارة الأب جيلو .. فوصلوا الى دابيبلا قرب المساء ، وكان موزينجا يجلس على مقعد هناك ، فى شرفة المنزل . فما لمحه لوكومت حتى صاح قائلا : « انت ياهذا ! » .. وهرع موزينجا نحوه ،

فقال له الحاكم : « ماذا تفعل هنا ياولد ؟ » .
ــ تركتنى المدام فى حراسة المستشفى ياسيدى الحاكم .
ــ ومن الذى ذهب معها ؟
ــ ذهب معها كولو وكوزونجو ومزيمبا ووانجا .. لقد رحلوا هذا الصباح .. وقد تركت المدام خطابا لك ياسيدى الحاكـــم .
وانحنى موزينجا وهو يسلم الحاكم الخطاب ، فراح هذا يفض الغـلاف ، وهو يصـــيح قائلا : « احضر لى الرئيس بودرجا حالا ! » . ثم مضى يقرأ الخطاب :
« فى الصباح الباكر ، سأمضى لأتسلق جبال القمر . وقد كنت أود أن أفعـل ذلك سرا ، ولـكن السر مســتحيل فى دايبيلا ، فسرعان ماستذيع الطبول النبأ . وأخشى ياهنرى أن تجىء ورائى لتثنينى عن عزمى ، وأنا أتوسل اليك الاتفعل . ولعل حجتى فى ذلك واضحة : فقد فشلت فى أن أحقق أى خير لأهالى دايبيلا ، فى حين اننى أحببت هذا المكان حبا عظيما ، ولا أود أن أتركه .. ومن ثم فان السبيل الوحيد الى ذلك هو أن أحطم الحاجز الوحيـد الذى يفصلنى عن الاهالى ، وهو ايمانهم بالخزعبلات ، فان وفقت فى ذلك فثمة أمل فى أن أؤدى لهم بعض الخير ، وأساعدهم . لذلك سأمضى لأتسلق الجبال ياهنرى ، وحين تقرأ هذا ، اكون قد قطعت شوطا طويلا ، فلا تتبعنى !.. ان كولو وكوزونجو ومزيمبا ووانجا يصحبوننى ، وهم رجال طيبون ومخلصون وشجعان ، ولا سيما كولو . ونحن نحمل مؤونة أسبوعين . وقد قرأت كل شىء عن تسلق الجبـال فى كتب الدكتور بايكل ، اننـا سنذهب أولا الى قرية كواو ــ على مسيرة يوم من دايبيلا ــ ومن هناك سنصعد الى القمة حيث يزعمون أن الله يسكن .. ثم سأنزل مرة أخـــرى ، لاقنع الاهالى بأن الله يسكن فى

دايبيلا كما يسكن فى قمم الجبـــال . وعندئذ أستطيع أن أصنع شيئا من الخير فى دايبيلا .

« لا تقلق من أجلى يا هنرى . واذا وجـدتنى فى حاجة اليك فسأرسل اليك أحـد رجالى ، فانتظرنى فى دايبيــلا ، واستغرق فى القــراءة تحت شجرة الليمبالى ، حتى أعود اليك .

المخلصة : راشيل »

***

وضع الخطاب فى جيبه وقد غامت الدنيـا أمام عينيه ، وما لبث أن لمح الرئيس بودرجا يقف عنـد نهاية السلم ، فقال له فى حدة : « هـل طلبت منك المدام رجالا ليتسلقوا معها الجبال أيها الرئيس بودرجا ؟ »

– نعم ياسيدى .

– ولم ترسل معها احدا ؟

– ان تسلق الجبال محرم ياسيدى .

– من الذى حرم ذلك ؟

– ان ذلك شر ، ولن يقبل أحد أن يقترفه .

– انك تشيع أفكارا سيئة هنا فى دايبيلا .

– ولكنك قد جئت بنفسك لتعيد المدام ، لانك تعلم أن فى ذلك شرا لها .

فتقدم لوكومت خطوة وصـاح فى غضب قائلا : « كلا . اننى لم آت لأعيــد المــدام يابودرجا ، انما جئت لأمكث هنا بعض الوقت .. جئت لاقضى أياما فى الصيد يابودرجا .. والآن اغرب عن وجهى ! »

فذهب الرجـــل واجما .. والتفت الاب جيــلو الى لوكومت قائلا : « هنرى .. انك لرجل عاقل » .

- ٩ -

• أخذ التعب من راشيل ومرافقيها عند الظهيرة، فاستراحوا تحت شجرة ضخمة بالقرب من جدول صاف ينساب على الصخور البلورية ؛ وقد سكنت الطيور وأوت الوحوش الى جحورها . وهنالك اكلوا من ثمار الموز والمانجو التى اقتطفوها من الادغال ، وشربوا من مياه الجدول العذب ، ثم استلقوا على بساط الارض الخضراء . حتى اذا صارت الساعة الواحدة ، قال كولو : « هيا بنا يامدام » . ثم رفع حقيبتها على كتفه ، وانتصب الرجال والرماح فى أيديهم ، والسهام والاقواس على مناكبهم ، والصناديق فوق رؤوسهم ، ومضوا يتبعون كولو فى بطء وهم يغنون .

وكانت راشيل ترتدى قميصا من الكاكى ، وسروالا قصيرا ، وقبعة عريضة .. وكانت قد قصت شعرها بالأمس فبدا قصيرا .

وما لبثوا أن تجاوزوا أدغال الاعشاب البرية ، ودخلوا منطقة كثة الاشجار من مناطق الغابات الاستوائية ، لايتخلل الفروع المتشابكة فيها بصيص من أشعة الشمس . وهنالك كانت الببغاوات تصيح ، والقرود تصرخ وهى تقفز هنا وهناك أمام أعينهم .. وأخيرا توقف كولو ورفع يده ، فوقفوا .. وعندئذ أحاط فمه بكفيه وأطلق صيحات عالية راحت أصداؤها تتردد بين جدران الجبال . ثم قال لهم : « هيا ! » .. وانطلق أمامهم مسرعا ، فما هى الا لحظات قليلة ، حتى ظهر شاب بين الاشجار الكثيفة مشرعا رمحه .

وكان القادم طويل القامة ، عارى الجسم الا من جلد يلتف حول حقويه ، وقد رشق فى اذنه نابا من أنياب النمور .. وتقدم الى كولو ، فراح الاثنان يتصافحان ويتكلمان

بلغتهما الخاصة . ثم قال كولو : « هذا ابن عمى كيتا يامدام ، عمدة قريتنا » . فمـــدت اليه يدها قائلة : « أنا سعيدة بلقائك ياكيتا » . فقال وهو يبتسم : « مرحبا بك فى قريتنا يامدام . لسوف أقودكم خلال غابات البامبو » ، وتقدمهم ، فما لبثوا بعد بضع دقائق أن رأوا فى الظلام شعلات النار ، والظلال ، والأصوات والروائح التى تنبعث من القرية ، وقد اقبل أهلها يتفرسون فى المرأة العجيبة ذات البشرة البيضاء .

وقادوها الى كوخ عند أطراف القرية ، حيث وضع كولو حقيبة ملابسها . وأشعلوا النار أمام كوخها . ومالبث شباب القرية أن تجمع حول النار ، وراحوا يرقصون رقصاتهم الوطنية احتفالا بالضيفة البيضاء .. وبعد فترة ، قفز « كيتا » ،وراح يرقص معهم . **ثم بدأت قدما كولو تضربان الارض على دقات الطبول .. وفجأة صاح صيحة غريبة واندفع نحو الراقصين وهو يصفق بيديه ، واندمج فى الرقص .**

وكانت وجوه الشبان تطفح بالسرور .. والفتيات عاريات الأجسام ، ونهودهن تهتز على ايقاع الطبول . وما لبث كولو أن أقترب من واحـــدة منهن وهو يضحك ضحكات غريبة فأخذت تبتسم له ، وقد تألقت أسنانها الناصعة البياض . وفجأة استدارت الفتـــاة وانطلقت تجرى .. وانطلق كولو يجرى خلفها ، وقد ارتفعت ضحكاتهما ، وهما يختفيان فى الظلام .. فقامت راشيل متثاقلة ودخلت كوخها لتنام .

وكان نومها مليئا بالاحـــلام الغريبة ، ولكنها استيقظت نشطة فى الصباح . وما لبث كولو أن دخل عليها تفوح منه رائحة الصابون الذى أعطته اياه بالأمس .. فقد اســـتحم فى جدول من جداول الجبل . وابتسمت له قائلة : « من هى الفتاة ياكولو ؟» . فقال : «انها احدى فتيات القرية يامدام» .

- ١٠ -

• وأقبلت الفتاة فى هذه اللحظة ، تفوح منها هى الأخرى رائحة الصابون ذاتها ، فقالت لها : « ما اسمك ؟ » .. فقال كولو : « انها لا تفهم لغتنا يامدام .. اسمها جيزا » . وكانت فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ذات نهدين صغيرين راسخين ، وعينين فاحمتى السواد .. والتفتت راشيل الى كولو قائلة له : « أعتقد انها تكون خير زوجة لك ياكولو » . فنظر اليها كولو مضطربا ، وقال : « ولكننى لا أريد أن أتزوج يامدام .. اننى لا أملك ثمنا لزوجة » . قالت : « يمكننا أن ندبر ذلك من أموال الارسالية » . ولكنه صمت ولم يجب !

وبعد هنيهة ، واصلوا الرحلة . وقد صحبهم كيتا ، يحمل رمحه ، ومعه ستة رجال ، كى يرافقوهم فى رحلتهم ، وتبعهم الأطفال يتصايحون ويضحكون .. حتى اذا بلغوا طرف الغابة ، برز لهم من بين الاشجار رجل كهل ، ذو شعر أبيض « أكرت » ، وصاح فيهم صيحة مفزعة .. فصاح كيتا فى وجهه ورفع عليه رمحه . وعندئذ أشار الرجل بيده نحو راشيل ، وصاح بكلمات غريبة ، وعيناه تقدحان شررا ، فقالت راشيل : « ماذا يقول ؟ »

فنظر كولو نحو الأرض هنيهة ، ثم قال بصوت خافت مضطرب : « انه يصب عليك اللعنة يامدام . انه يقول أنك ان مضيت فى تسلق الجبال ، أصابك العذاب الابدى .. انه رجل شرير يامدام » .

وفجأة دفع كيتا الرجل بمؤخر رمحه ، فوقع على الأرض ثم اعتدل قليلا وراح يلعن راشيل مرة أخرى ، قبل ان ينتصب وينطلق متفلفلا بين الاشجار . فقالت : « كيتا ..

هل صب هذا الشيخ لعنته على الدكتور بايكل حين بدا يصعد الجبال ؟ » .. فقال كيتا فى حزن : « نعم يامدام .. لقد دعا عليه بالموت » . فقالت : « هيا نواصل رحلتنا ! »

وفى هدوء ، حمل الرجال أحمالهم ، وواصلوا المسير مصعدين فى الجبال ، وكأنهم بضعة من النمل تاهت فى حقل هائل من الحشائش .. واذا بهم يدخلون فى منطقة ليس بها الا ماء موحل ، حتى لقد كادوا ـ بعد بضع ساعات ـ يهلكون من العطش . واخيرا اكتشفوا بعض أعواد الخيزران الممتلئة بالماء الصافى ، فشربوا منه . وما لبث المطر أن انهمر مدرارا ، فظلوا يسيرون تحت وابله حتى أنهكهم التعب ، فارتموا أخيرا على الأرض يستريحون . **وما لبث كولو أن لمح شيئا على الأرض ، فاقترب منه وراح يفحصه ، ثم نادى قائلا : « يامدام » ، فذهبت اليه .. واشار الى آثار فى الارض تشبه آثار أقدام الانسان ، وقال : « انها آثار أقدام الغوريلا ».**

ـ هل رأيت غوريلا من قبل يا كولو ؟

ـ كلا يامدام ، لم أر الا آثار أقدامها .. ومنذ زمن بعيد كان لى ابن عم ذهب ليصيد الغوريلا ثم لم يره أحد بعد ذلك .

ـ دعنا نواصل رحلتنا .

وانطلقوا يصعدون فى الجبال ، حتى اذا كان المساء اصطادوا غزالا صغيرا وشووه على النار واكلوه ثم ناموا بجانب أحد الغدران .

***

فى صباح اليوم التالى قال مزيمبا : « أريد أن أعود أدراجى يامدام » . فقالت له : « اذا عدت يامزيمبا ، فستضل وتموت فى الطريق . يجب أن تبقى معنا » .

وقال وانجا : « سأذهب معه يامدام » ، فصاح كولو قائلا : « مجنون . انك لن تعرف الطريق بدونى . ماذا تفعل اذا هاجمتك الضباع ؟ .. وكيف توقد النار حين يكون الحطب مبتلا ؟ » .

كانوا قد أصبحوا على بعد يزيد على سبعة آلاف قدم .. ولو أنهم عادوا فسيكون حتمـا على « راشـيل » ان تغادر دايبيلا .. واذا غادرت دايبيلا ، فستضطر الى ان تغادر أفريقيا !

وما لبثت أن رأت كولو وكيتا يتحدثان ، ثم جاءها كولو وقال : « ان كيتا يريد العودة الآن يامدام » .. وكانت تدرك انها لو سمحت لكيتا بالعودة لانطلق معـه مزيمبا ووانجا . فقالت لكولو فى صوت منخفض : « بماذا يريد كيتا ؟ .. ماذا بوسعى أن أعطيه كى يستمر معنا ؟ » . فذهب الى « كيتا » وتحدث معه ، ثم لم يلبث أن عاد وقال : « انه يطلب شيئا مستحيلا يامدام .. يقول انك لو أعطيته مسدسك ،وعلمته كيف يستعمله ، فسيذهب الى حيث تريدين . ولكن الاهالى عندنا ممنوعون من حيازة السـلاح » . فقالت له : « قل لكيتا أن يستمر معنا حتى القمة ، ثم يعود معنـا .. وفى نهاية الرحلة سأعطيه المسدس ، وأعلمه كيفية استعماله .. ولن أقبل اية مساومة بعد ذلك . لن أعطيه أكثر من هذا» .

فما عرف كيتا أنهـا وافقت ، حتى صـاح من الفرح ، وواصل المسير معهم . وظلوا يصعدون فى شعاب الجبل .

حتى اذا كان صباح اليوم التالى ، استيقظوا على صوت غريب ، يشبه الصيحة البشرية ، ولكنه ينتهى بزئير حيوان . وما لبث الرجال أن انتصبوا فى ذعر ورماحهم فى أيديهم ، وصاح كولو قائلا : « الغوريلا ! » . وعندئذ قفز كيتا رافعا رمحه وهو يصيح قائلا : « سيدابالا ! » ، فلم تفهم راشيل

ما كان يقول .. وذهبت تأتى بمسدسها من الحقيبة ، ولكنها لم تجده فى مكانه ، بينما كان كيتا يردد كلمته قائلا : ((سيدابالا !)) وهو يهز رمحه ، وقد كست وجهه وحشية لم ترها من قبل على وجه انسان ، وارتسم فى ملامحه مزيج غريب من الزهو والخوف والغضب !.. فقالت : « مسدسى .. اين مسدسى ؟ » ، وما لبثت أن لمحته عند أقدام كيتا ، فقالت فى هدوء : « كيتا .. هات المسدس ! »

وانحنى كولو ليلتقط المسدس . فدفع كيتا يده ، وراح يصرخ فى وجهه . فقالت : « ماذا يقول ياكولو ؟ » .. قال : « انه يريد أن يأخذ المسدس الآن ، ويقول انك يجب ان تعلميه استعماله ليقتل الغوريلا » . وعندئذ صوب كيتا رمحه الى عنق كولو ، فصاحت فى فزع :« لاتتحرك ياكولو!.. قل لكيتا لماذا توقف عن الكلام بلغتنا ، ولماذا لا يكلمنى؟» فقال كولو : « لقد تغير دمه ، ولم يعد يستطيع الكلام بأية لغة الا لغته ، حتى يقتل الغوريلا .. اذ يقال أن رجلا من قريتنا سيقتل الغوريلا يوما ما ، وسيكون أعظم صياد فى كل الازمان . وكيتا يقول انه هو ذلك الرجل)) .

فقالت له : « قل لكيتا اننا سنصل الى القمة جميعا سالمين .. أما اذا أحدث أحدنا متاعب فسوف يهلك .. قل له أن بيننا اتفاقا ، واننا ينبغى أن نمضى معا » .

ولكن كيتا راح يهدر بالتهديد ، فبدا الذعر على كولو ، وقال : « انه جن يا مدام .. كما جن ابن عمى من قبل وذهب ليقتل الغوريلا ، ثم لم يره أحد بعد ذلك .. علميه كيف يستعمل المسدس ، ودعيه يذهب ، وسنعود أدراجنا يامدام .. يجب أن نعود ! .. ان طريق العودة سهل . فلنغادر هذا المكان ، لأننا اذا واصلنا الصعود فسنموت » . فقالت فى هدوء : « أشعل النار ، وجهز الافطار ياكولو » .

ثم تقدمت نحو كيتا فالتقط المسدس ، وناولها اياه ، فصاح كولو قائلا : «كونى على حذر يامدام» .. وراح بقية الرجال يهمهمون .

وأمسكت المسدس وراحت تستعمله أمامه ، وقد جال بخاطرها — فى هذه اللحظة — أن تطلقه بين عينيه وتنتهى منه ، ولكنها سرعان ما عدلت عن ذلك .. وبعد أن علمته كيفية استعمال المسدس ، قالت : « فلنأكل ! » . فجلس يأكل معهم ، وقد وضع المسدس بين فخذيه ، وهو يتطلع الى الجبال .

وقالت له راشيل : « لايزال بوسعك أن تسمع كلامنا ياكيتا ، وان كنت لا تتكلم ، فأصغ لما أقول لك .. لاشك أنه حسن منك أن ترغب فى أن تكون صيادا عظيما ، ولكنك لا تستطيع الآن أن تقتل الغوريلا بالمسدس .. فانتظر حتى تحسن استعماله ، واعطنى المسدس كى نصعد الى القمة . اننا سنمر بالغوريلا سالمين اذا لم نحاول ايذاءها ، ويمكنك أن تعود بعد ذلك لاصطيادها ، حين تتعلم تعليما كافيا كيف تطلق المسدس ! »

وانتصب كيتا على قدميه وكأنه لم يسمعها . وما أن ابتعد بضع خطوات ، حتى عبأ المسدس بالرصاص كما علمته . فقال كولو هامسا : « فلنعد الآن يامدام ! » ، ولكنها لم تلتفت اليه ، وراحت تراقب كيتا وهو يضع قوسه على كتفه ويمسك رمحه فى يده اليسرى والمسدس فى يده اليمنى وينطلق الى الغابة .

فصاحت راشيل : « انتظر ياكيتا ، فسنذهب معك ! » .
فصرخ كولو : « كلا يا مدام » .. وصرخ الرجال جميعا :
« كلا » . فقالت : « آمركم باسم الله أن تتبعونى ! »

وانطلق كيتا مسرعا ، وتبعته راشيل .. وسار خلفها

الباقون متثاقلين . ولكنه سرعان ما غاب عن أنظارهم ، وعبثا حاولوا ان يقتفوا أثره ..

***

كان الضباب يلفهم وهم ينطلقون فى صعودهم حثيثا ، ثم ما لبثت الشمس أن بدأت تبدد الضباب .. وفيما كانوا يجتازون الغابة ، سمعوا طلقا ناريا رددت أرجاء الجبل أصداءه ، فتملكهم الذعر ، وأرهفوا آذانهم ..

وبين الادغال ، سمعوا زئيرا مخيفا ، ثم طلقا ناريا آخر يدوى قريبا منهم هذه المرة .. ولكنهم لم يستطيعوا ان يروا فى الغابة شيئا .

وفجأة ، صاح كولو وهو يسير نحو الجنوب : ((انظرى يامدام !)) . . ولم تر شيئا فى بادىء الامر ، ثم تبينت ضوء الشمس يتألق على شىء معدنى ، ورأت شبحا يتحرك .. كان رجلا يجرى . وقد تبينته .. كان كيتا . ومن الغابة ، برز خلفه شبح آخر ، أسود وضخم ، يقفز بخطوات واسعة .

وأطلق كيتا عيارا آخر ولكن الشبح لحق به ، فألقى بالمسدس وأمسك رمحه ، ولكن الغوريلا اختطف الرمح كأنه عود ثقاب ، ثم أطبق على الرجل واختطفه ، واختفى به ، وكأنما انشقت الارض وابتلعتهما .. ففطت راشيل عينيها فى رعب ، وفى تلك الاثناء ، سمعت كولو بجانبها يقول لها بصوت مرتجف : ((يجب أن نذهب سريعا يامدام !)) . فانطلقت تجرى خلفه فى الظلام .. وسمعت صيحة انتصار تخرج من الغابة ، فظنتها فى أول الامر صادرة عن كيتا ، ولكنها ما لبثت أن انتهت بزئير مخيف ، يعلن انتصار الغوريلا !

- ١١ -

• وفى ذلك المساء ، اكتنفهم الضباب وهم يمشون فى كابوس

رهيب ، بعد ان رأوا موت كيتا .. وكانت تلك هى الليلة الرابعة منذ أن غادروا (دايبيلا) ، ولكنهم كانوا يخالون أنهم قضوا فى رحلتهم تلك شهورا طويلة .

وقضوا اليوم التالى كله يسيرون فى أدغال كثيفة حالكة الظلام .. حتى اذا اقترب المساء ، وجدوا انفسهم فجأةفى واد مشرق يتلألأ بالنور ، وقد ارتفعت فوق رؤوسهم قمم رائعة من الجليد الناصع البياض . فأفعم قلب راشيل بالفرح والتفتت الى مرافقيها قائلة : « لقد كنتم شجعانا أيها الرفاق ، فها نحن قد بلغنا قمم الجبال .. **ان الأهالى الجهلاء يقولون ان الله يختفى هنا ، متأهبا لأن يصب جام غضبه على الانسان . فهل منكم من يصدق ذلك الآن؟»**

واذ قال كوزونجو : « كلا يامدام » ، قالت : « صدقوا اذن أن الله فى كل مكان ، وأنه كان معنا طوال الطريق » .

وقال مزيمبا : « هل سنعود الآن يامدام ؟ » .. فقالت : « سنعود صباح الغد . أما الآن ، فأننى سآخذ كولو معى ونصعد الى رأس القمة ، فانتظرونا هنا ! » . ثم التفتت الى كولو قائلة : « هيا بنا » .

وعبرا الوادى مسرعين ، وبعد ساعتين بلغا أقدام صخرة عظيمة ، فتسلقها كولو ، ثم القى بالحبل الى راشيل ، فتسلقت خلفه ، حتى اذا لحقت به وقفت لاهثة ، وقد ملأت السعادة قلبها .. **لقد أصبحت فوق القمة أخيرا .. القمة التى كانت تتطلع اليها ! .. فأغمضت عينيها وراحت شفتاها تتمتمان بصلاة شكر لله ..**

وعندما تطلعت ـ بعد ذلك ـ الى كولو ، رأته رافعا عينيه الى السماء فى خشوع . فصمتت هنيهة ثم قالت : « والآن .. هيا نعود ! » .

- ١٢ -

• **وأذاعت** الطبول القصة . وقد دوت ضرباتها فى قرية كولو عند المساء ، فبلغت دايبيلا .. وهناك قفز ضارب الطبول على قدميه وراح ينصت ، كما جاء الأهالى وراحوا يراقبونه ، وهرول الرئيس « بودرجا » نفسه من كوخ أصفر زوجاته ، وجاء يستطلع جلية الامر . حتى اذا صمتت الطبول فى قرية كولو ، أعلن قارع الطبول فى دايبيلا بمضمون الرسالة ، وراح الأهالى يلفظون فى دهشة ورهبة . وسرعان ما سمعت روجيرى بالأمر ، كما سمع به الأب جيلو ، وكل البيض القاطنين فى تلك الجهات ، وكافة الأهالى القابعين فى اكواخهم على مئات الأميال المربعة من الأرض .

وقالت الرسالة أن المرأة البيضاء التى فى (دايبيلا) قد تسلقت مع اربعة من رجال قريتها جبال القمر حتى بلغوا قمتها ، ثم عادوا سالمين ! .. وأصبحت هذه الرسالة موضع حديث الجميع فى كل مكان ، وسرعان ما تناقل الأهالى أن اللعنة قد حلت بالمرأة البيضاء .

ولقد عرف لوكومت كل هذا ، وهو عائد من مكان الطبول فى قرية كولو .. وكان قد وصل الى هذه القرية منذ أيام مضت ، فى انتظار عودة راشيل ، وسمع من الأهالى أن الشيخ قد صب لعنته عليها .

وعند الظهيرة ، جاء رجل يجرى من الغابة وحبات العرق تلمع على جسمه الفاحم السواد ، وهو يصيح صيحات الحرب القديمة : « عادت المدام .. عادت المدام ! » . فاندفع لوكومت نحو الجبل وراح يجرى لاهثا ، حتى سمع أصواتا تأتى من بعيد ، ورأى بضعة رجال يتقدمون ، فتوقف وتساءل فى ذعر : « أين راشيل ؟ » ..

وما لبث أن رآها ، وكانت تسير خلف كولو ، وقد لوحتها الشمس وتراكم الوحل عليها ، فأصبحت مخلوقا غريبا فى قميصها الكاكى الذى بدت به من بعيد وكأنها أحد الأفريقيين ..

واندفع نحوها صائحا : « راشيل ! » .. فهرولت مسرعة اليه ، وكأنهما عاشقان فى رواية غرامية .. وابتسمت له ، فراح قلبه يدق فى عنف .. وطوقها بذراعيه ، فوضعت خدها على خده قائلة : « هنرى ! » . وتطلع الى وجهها قائلا : « هل فعلتها ؟.. هل بلغت القمة ؟ » . فقالت : « نعم . بلغناها ! » .. وهتف : « يا الهى ! »

وراح ينظر اليها فى اعجاب ، وهو يفكر فى جمالها وشجاعتها ، ويحس بقلبه يكاد ينخلع من بين جنبيه ، ويحاول ان يمنع نفسه من أن يبوح لها — فى تلك اللحظة — برغبته التى طالما أراد أن يبوح بها ، والتى شعر بأنه ان يبوح بها — الى الأبد — ان لم يفعل اذ ذاك .

وهمس بصوت خافت قائلا : « راشيل ، هل أجىء الى كوخك ، لأقضى الليلة معك ؟ » . ففتحت عينيها فى دهشة وصمتت وكأنها توقف تنفسها ، ثم قالت : « كلا ! »

وحسب أنها ستقول : « ليس الليلة .. » . ولكنها لم تقلها ، بل كررت رفضها فى تأكيد ، قائلة مرة أخرى : « كلا » . ثم استدارت متجهة اليه ، وابتسمت له ابتسامة خفيفة ، كأنها تريد أن تقول له أنهما صديقان برغم كل شىء ، ويجب أن يظلا صديقين .. ثم قالت : « مساء الخير يا هنرى ! » . وتركته واختفت .

— ١٣ —

• **كان** فصلا شديد الحرارة والجفاف . وكانت الشمس ترسل شواظها المحرقة على (دايبيلا) ، وقد انقطع المطر ،

فانتشرت الحمى بين الأهالى ، وأصابت الملاريا كثيرين منهم ، كما أصيب بعضهم بقرحات خبيثة ، ومات البعض الآخر بعد مرض قصير .. ولكن أحدا من الأهالى لم يتقدم الى المستشفى .

ولقد ظلت راشيل ـ بعد عودتها من الجبل ـ تنتظر ولو مريضا واحدا ، ولكن الجميع كانوا مبتعدين عنها ؛ وهم ينتظرون فعل اللعنة فيها . وبرغم نشاطها فى اعطاء الدروس تحت شجرة « الميمبالى » ، فقد تملكها الضجر ، وأخذت تخرج أحيانا للصيد فى الغابات ، يصحبها كولو .. فقد كان كولو بمثابة عينيها وأذنيها فى الغابة ـ وفى دايبيلا ـ وقد علمها كيف تصيد الحيوانات .

وخلال أيام الانتظار ، زارها الأب جيلو ، مصطحبا مساعده الأب شوارتز ، الذى لم تكن قد رأته من قبل .. كما زارها ارنسنت دوكاس ـ المزارع البلجيكى ـ وزوجته مادلين ، وقضيا عندها ثلاثة أيام خرجوا خلالها كثيرا للصيد ..

وجاء لوكومت مستصحبا معه زوجته ، وقد بدا فى هذه المرة رزينا ومؤدبا ، حتى لكان من العسير على المرء أن يظن أن هذا هو لوكومت الذى طلب اليها ـ فى المرة السابقة ـ أن يقضى الليلة معها فى فراشها . وقد تصرفت معه «راشيل» بأسلوب يشعره بأنها لم تكن غاضبة منه ؛ وأنهما لا يزالان خير صديقين ، فما من حاجة به لأن يحضر زوجته معه فى المرة القادمة .

وبعد أن انقضى شهر على عودتها من الجبال ، جاء «كولو» فى الصباح الباكر من ذات يوم ، وعيناه مفتوحتان الى أقصاهما ، وصوته يرتجف بالتأثر وهو يقول : ((**يا مدام .. لقد جاء مريض الى المستشفى**)) . فاندفعت تقفز قفزا ، وكأنها تجرى ، الى المستشفى .. وعند الباب ، رأت شابا

ينتظرها ، وقد وقف جماعة من الاهالى بالقرب منه فى صمت، فابتسمت له قائلة : « أهلا بك . مم تشكو ؟ »

قال : « اننى أشكو من قرحة مؤلمة يا مدام .. فهل يمكنك علاجها ؟ » . وأشار الى قرحة كبيرة فى ساقه ، فقالت : « نعم يمكنني » .. ثم أشارت الى الواقفين بالقرب منه ، قائلة : « ادع أصدقاءك معك ! » . فصاح مشيرا اليهم، ولكنهم ترددوا ، ثم تقدم بعضهم متباطئين . فحيتهم راشيل بحرارة ، ودعتهم للدخول .. ودخل الرجال . أما النساء فقد بقين فى الخارج .

واندفع موزينجا الى الداخل ، وارتدى كولو مئزره الأبيض – بصفته كبير الممرضين – وأمر موزينجا بأن يغسل يديه .

وفتحت للمريض – الذى كان يدعى « تيزا » – قرحته ، وطهرتها ، ثم قالت له : « اذهب وارقد اليوم فى كوخك ، ثم تعال غدا لأغير لك الضمادة ! » . وأشارت الى اثنين من الأهالى الواقفين ، وقالت لهما : « هل تسمحان لى بأن أعالج جروحكما ؟ » . فنظر كل منهما للآخر ، ثم نظر كل منهما الى تيزا .. وما لبث أن تقدم أحدهما اليها مبديا استعداده لذلك .

وحين انصرف الجميع ، نظرت الى كولو وعيناها تتألقان ، فابتسم لها قائلا : « ان المدام سعيدة مرة أخرى » . فقالت فى نفسها أنها كانت سعيدة حقا ، فقد كان أهم شيء بالنسبة اليها ، أن تواصل العمل من جديد .

وفى الصباح التالى ، عاد تيزا مع صديقه ، فغيرت ضماد الأول ، ونظفت جرح الثانى .. وتبعهما رجلان ، ثم امرأة شابة ، فعالجتهم جميعا . وبعد أن شفيت قرحة « تيزا » ، واصبح يسير دون أن يعرج كما كان يفعل من قبل ، راح

الأهالى يتقاطرون على المستشفى ويقفون أمامه فى صفوف طويلة ، شبانا وشيوخا ، رجالا ونساء وأطفالا .

- ١٤ -

• ونظمت راشيل كل شىء فى المستشفى تنظيما تاما ، فحملت الجميع - حتى موزينجا - على العمل .. وعينت كوزونجو فى منصب المساعد الثانى . وأخذ كوزونجو - وهو مزهو بمئزرته البيضاء - يقف عند الباب ، ويرسل اليها كل واحد فى دوره . ومع مضى الوقت - وقد تزايد عدد المرضى ، وأصبحوا يتزاحمون عند الباب - أصبحت راشيل تعهد الى مساعديها بكثير من أعمالها . وكانت تتلطف مع المرضى ، وقد عرفت أسماءهم واحدا واحدا .. فكانت لا تفتأ تسأل عن أحوالهم ، وعن أقاربهم .. كانت تحبهم جميعا ، ولذلك فقد أحبوها جميعا .

وكان كولو يعتقد - على الدوام - أنها مرسلة من الله الآب . فقد كانت - فى كل لحظة من لحظات يومها - تبرهن بأعمالها على وجوده .. ان الله يحب الناس جميعا ، وهى كذلك تحبهم جميعا ، وتختلف - فى ذلك - عن كل من كانوا يعرفونهم من البيض .. فالحاكم قاس على الجميع ، والمزارع الأبيض البدين وزوجته يعاملان الأهالى أسوأ معاملة ، فهم يكرهون الافريقيين .. بل انهم ليدربون كلابهم على كراهية الافريقيين . وهم لا يفتأون يصيحون فيهم فى صلف قائلين : « يا ولد . يا ولد ! » ، غير مفرقين بين صغير ولا كبير .. ولا يتعبون من اصدار الأوامر اليهم .

وذاع خبر راشيل وانتشر من (دايبيلا) الى القرى المجاورة فى الوادى كله ، حيث سمع الناس بما تفعله « المدام » فى المستشفى وتحت شجرة « الليمبالى » . وقد ازداد عدد

التلاميذ فى فرقة تعليم اللغـــة السواحلية ، فقسمتها الى قسمين ، وجعلت كولو معلما لأحـدهما ..

ولم يـكن يشغل بالهـا سوى أن المرضى كثيرا ما كانوا يحتاجون الى عمليات جراحية ، لم تكن قادرة على اجرائها ، لأنها كانت تحتاج فى ذلك الى طبيب . ولكنها كانت تعلم أن من غير الممكن ارسال طبيب الى (دايبيلا) ، لأن الحرب كانت ناشبة فى أوروبا ، وكان كل الأطباء مجندين فيها .

وكانت أحيـانا تجلس الليل كله ، على ضوء شمعة ، الى جانب مريض لم تـكن تملك أن تعالجـه ، فتملكهـا اليأس والقنوط من أجله . وكان كولو يراها على هــذه الحـال ، فينزعج جدا ، ويتمنى أن يرسل الله لها طبيبا كى يعاونها .

وأخـيرا ، فى يوم من أيام الأحـد ، كان المجتمعون تحت شجرة « الليمبالى » مغمضين أعينهم ، وهم مستغرقون فى الصلاة .. وكان من بينهم كولو ، فخيل اليه ـــ فى لحظـة من لحظات خشوعه ـــ أنه رأى الله والمسيح كما اعتـاد أن يراهما وهو يصلى تحت شجرة « الليمبالى » ، وقد تحدثا اليه قائلين : « ماذا تريد يا كولو ؟ » .. فركع على قدميه قائلا : « أرجو أن ترسلا الى المـدام طبيبـا يسـاعدها فى رسالتها » . فابتسما له ، وقالا : « لك ما تريد يا كولو » .

وعندئذ شعر بيد المدام تهز كتفه ، ففتح عينيه ، وحدق فى وجهها الذى ارتسمت عليـه الدهشة ، ثم صاح قائلا : « يا مدام . لقد رأيتهما ، وطلبت منهما .. »

فقاطعته قائلة : « أعرف ماذا طلبت منهما .. لقد سمعتك .. سمعناك جميعا ! »

فقال : « لقد قبلا رجائى يا مدام » .

فنظرت اليه فى جزع كأنه يهذى ، وقالت له : «اتبعنى!»، ثم ذهبت به الى المستشفى . وهنـالك اختبرت حـرارته

ونبضه ؛ ولكنهما كانا طبيعيين . فابتسمت قائلة : « اذهب واسترح فى فراشك قليلا يا كولو ! »

***

كانت راشيل ـ بعد ذلك بأربعة أيام ـ خارجة ، فى الصباح ، من غرفة نومها ، حين سمعت أزيز طائرة تقترب من (دايبيلا) خلال المطر المنهمر . فأسرعت نحو الشرفة ، وتطلعت نحو السماء ، وهى ترهف السمع .. وجاء الاهالى يهرولون ، رافعين أبصارهم الى أعلى ، وهم يصيحون : « الطائر الحديدى ، الطائر الحديدى ! »

وما لبثت الطائرة أن بدت على ارتفاع قليل ، وهى تتجه نحو الجبال . ثم انبعث منها لهب برتقالى ، وهى تندفع راسا الى الصخور الشاهقة ، فأطلقت راشيل صيحة تحذير غريزية ، ثم وضعت يدها على فمها ..

واختفى اللهب ، وخفت صوت الازيز ، وساد السكون .. ثم سمعت صوت انفجار من بعيد ، كأنه انطلاق مدفع كبير . وساد السكون مرة أخرى .

واختطفت « راشيل » معطف المطر وهرولت مسرعة نحو الجبال . وأسرع « كولو » خلفها ، وتبعهما الاهالى يجرون مضطربين .. حتى اذا قطعوا نحو الميل ، اعتلت راشيل صخرة قائمة ، وراحت تتطلع حواليها عساها أن تخترق بنظرها سيل المطر المنهمر . ولكنها عجزت عن أن تبصر شيئا ، فلم يكن هنالك ـ تحت سيل المطر ـ لهيب ولا دخان . بيد أن الطائرة كانت قد تحطمت ـ ولابد ـ فى مكان ما على الجبال . ولقد سمعت الانفجار بعد مرور الطائرة فوق دايبيلا بدقائق قليلة .. ولكن الدقائق القليلة بالطائرة معناها السير بالاقدام عدة ساعات . وقد يتطلب الامر أياما

للعثور على الطائرة ، أو قد لايمكن العثور عليها أبدا بين هذه الأدغال .

وعند الظهر ، صاح كولو قائلا : « يبدو أن هنالك شيئا ما يامدام ! » .. وراح يشير بيده نحو اليسار ، فشقوا طريقهم بين الحشائش الطويلة ، حتى بلغوا مرتفعا رأوا على سفحه بعض حطام الطائرة ، وقد تمزق أحد جناحيها ومازال يحترق ببطء ، وانتثرت أجزاء أخرى فى أماكن متفرقة والنار تأكلها .

ولم تكن ثمة علامة تنبىء بحياة .. ولكن لم تلبث أن ارتفعت صيحة خافتة من رجل يقول فى حشرجة : « هيجنس .. هيجنس ! » . ثم ندت صيحة ألم فظيع من موضع آخر ، فأسرعت راشيل ومعها كولو الى مصدر الصوت .. وهنالك رات رجلا ممددا .. **وأغمضت عينيها ، فانه لم يعد رجلا الآن ، وانما أصبح كتلة من البروتوبلازم تحترق وتختلط بعضها .. أصبح مزيجا مستعرا ، مازالت الحياة تصرخ فيه صرخات وحشية !**

وارتفع صوت آخر يقول : « يا ألهى ! » . فتلفتت راشيل ناحيته ، واذا برجل كان يحملق فى المحترق ويصرخ فى عذاب .. وكان أشقر البشرة ، أسود الشعر ، أزرق العينين ، استلقى على ظهره فوق الحشائش ، ولكنه كان بعيدا عن النار . فاتجهت نحو الرجل الذى كان يحترق ، وركعت الى جانبه مرتبكة لا تدرى ماذا تفعل ، كانت ترى الحياة مازالت تطل من محجريه ، فتقول فى نفسها : « لماذا لايموت الآن ؟ » .. ثم انحنت عليه عساها تستطيع أن تخفف من عذابه ، وعندئذ سمعت الرجل الآخر الملقى على الحشائش يقول لها : « لافائدة .. لقد مات ! »

فصاحت فى غضب مفاجىء قائلة : « كلا . من أين لك أن تعرف ؟ »

فقال : « أعرف جيدا .. فأنا طبيب ! »

- ١٥ -

• **نهضت** راشيل وهى تتلفت حواليها قائلة : « قد يكون ثمة آخرون » . فقال الرجل : « ليس ثمة آخرون .. لقد مات تيبيت .. وها هو ذا هيجنس قد احترق ! » .. فاستدارت اليه قائلة : « وأنت ؟.. يبدو أنك مصاب كذلك » . فقال : « مجرد كسر فى الساق » . ثم رفع رأسه وهو يتطلع خلفها قائلا : « هشى هذه الطيور عن تيبيت » .

والتفتت الى كولو لتطلب اليه أن يهش الطيور ، فنظر هذا الى المتحدث قائلا : « يا مدام .. هل هو ؟.. » . فقاطعته قائلة : « نعم ، انه دكتور .. والآن احفروا حفرة عميقة للجثتين » . **ثم استدارت الى الجريح قائلة : « تقول أنك طبيب .. أليس كذلك ؟ » . قال : « نعم . كنا ثمانية أطباء ، وقد ألقيت بنفسى بعيدا عن الطائرة فنجوت .. ومن أنت ؟ »** . فقالت : « اسمى راشيل كيد » .. وحاول أن يبتسم ، وهو يقول : « ياله من اسم جميل .. » ثم تلفت حواليه قائلا : « أين أنا ؟ »

— هل أنت أمريكى ؟

— نعم ، أنا أمريكى .. ولكن أين أنا ؟

— بالقرب من قرية تسمى (دايبيلا) .

— فى أى مكان ؟ أقصد هل أنا فى كينيا أم ...

— أنت عند أقدام الريونزورى .. لقد كنتم تتجهون رأسا اليها ..

— لم أسمع قط بالريونزورى .. لقد كنا متجهين الى نيروبى وجوهانسبرج ..

ولاحظت فى هذه اللحظة أنه يرتدى بقايا حلة عسكرية زرقاء ، فقالت : ((**تقول أنك دكتور وأمريكى ، ولكنك ترتدى حلة عسكرية ، أليس كذلك ؟..))**

ــ قولى لى أولا أين أنا .. وعندئذ أقدم لك نفسى ، يا راشيل كيد !

ــ لقد قلت لك .. هذا هو الطرف الشرقى للكونغو البلجيكى ، بالقرب من خط الاستواء ..

فاكفهر وجهه فى غضب وهو يقول : « ذلك المجنون الاحمق هاريس .. اننى آسف يا راشيل اذ اتحدث هكذا عن رجل ميت .. ولكنه كان ذاهلا تماما ، فأضاع كل شىء .. لقد وصلنا عبر الشاطىء الغربى الى ليوبولدفيل ، ومن هناك قرروا أن يرسلونا الى نيروبى لمهمة لا نعلمها .. فانطلق هاريس وسط العواصف والرعود فى سرعةجنونية حتى فقد عقله .. وكانت هذه هى النتيجة » . وصمت هنيهة ثم نظر اليها قائلا : ((**اسمى بول ويلتون ، وأنا أمريكى ، وأعمل برتبة كابتن فى السلاح الجوى البريطانى))**

وفجأة مالت عليه قائلة فى عطف : «هل ساقك تؤلمك ؟» .

ــ انها تؤلمنى ألما فظيعا يا راشيل .

ــ أعتقد أن من الافضل أن نعالجها هنا .

ــ هل أنت طبيبة ؟

ــ كلا . اننى ممرضة ، ولكنى التى ستعالج ساقك اذا قدر لها أن تعالج هنا .. فليس ثمة طبيب واحد فى نطاق مائتى كيلو متر .

ــ يا الهى !

واستدعت راشيل رجلين ، وكلفتهما باعداد محفة من فروع الاشجار وأعواد القش ، لنقل المصاب الى المستشفى .

وما لبث أن قال لها : « هل عندك هنا أشعة اكس ؟ »

ـ اشعة أكس ؟!.. انك لا تتصور مقدار البؤس الذى نعانيه هنا .. ولكننى سأعالج ساقك على أية حال !

ـ حسنا يا راشيل .. اننى أشعر بألم كذلك فى صدرى .. هنا !

ـ هل بصقت دما ؟

ـ كلا .

ـ اذن لا تنزعج ، وسنفحصك فى المستشفى .

***

وعندما انتهى الرجلان من صنع المحفة ، طلبت اليهمالن يضعاه عليها . ثم نقلاه بعيدا عن جثة « هيجنس » . وهناك راحت راشيل تفحص ساقه . وتطلعت الى وجهه وهى تمزق سرواله .. **لم يكن جميلا بمعنى الكلمة ، ولكنه كان ظريفا ، وقويا . وكانت فى ذقنه المستديرة « نغزة » تشبه « نغزة » الاطفال ، وعلى خده الايسر ندبة من جرح قديم ..** وراح يقبض بيديه على جانبى المحفة ، وهى تفحص الاصابة ، فقالت له : « لا تجزع .. فالامر لا يتعدى شرخا بسيطا » . ثم ضغطت على الساق بضمادة قوية ، فتفصد جبينه بالعرق ولكنه لم يصدر صوتا ما . حتى اذا انتهت من مهمتها ، قال لها : « أشكرك يا دكتورة ! » . فابتسمت قائلة له : « مرحبا بك يا دكتور ! »

وفجأة امتقع لونه وقد اشتد عليه الألم ، فوضعت يدها على جبينه فى عطف . وقال لها : « عندى تسع سجائر باقية ، وأظننى أستطيع أن أضحى الآن بواحدة » . ثم أخرج علبة سجائر « بلايرز » وولاعة من جيبه الاعلى ، فقالت له : « استرح قليلا » . ثم اتجهت نحو بقايا الطائرة المحترقة ، فاقترب منها كواو قائلا : « هنالك ثلاث

جثث يا مدام .. اما الباقون فقد أتت النار عليهم تماما ولن يتسنى دفنهم ! » .. فقالت : « اذن ، فلندفن الجثث الثلاث ! »

ووقفت وأغمضت عينيها ، وبدأت تصلى .. ثم أمرت الرجال فوضعوا الجثث فى الحفرة ، وأهالوا عليها التراب ، بينما أخرج « بول ويلتون » سيجارة أخرى من سجائره الثمينة وأشعلها .

وحمله كولو وكوزونجو ، وسارا به الى القرية ، يصحبهم الباقون ، وعلى رأسهم راشيل .. حتى اذا بلغوا به المستشفى ، أدخلوه غرفة الجراحة . **وهناك ، راح يتلفت حواليه فى تطلع ، ثم قال : « انك تقومين بعمل طيب يا دكتورة » . فقالت : « كل ما أحتاج اليه هنا هو .. دكتور ! »**

وحين نزع قميصه الممزق ، أدهشها بياض جسمه القوى العضلات .. فقد مضى وقت طويل لم تكن ترى فيه الا أجساما سوداء .. وراحت تفحص ضلوعه ، وتنقر عليها باصابعها ، ثم وضعت « السماعة » على كل مكان فى صدره ، وراحت تنصت وهى تطلب اليه أن يتنفس بعمق .. وانتصبت فى النهاية قائلة : « لا يوجد أى كسر .. .. والقلب سليم » .

فالتفت اليها قائلا : « أشكرك على انقاذ حياتى ياراشيل » . ثم أردف قائلا : « أنت غير متزوجة ، أليس كذلك ؟ .. انك لا تلبسين خاتما ! »

ـ هل تلاحظ دائما مثل هذه الاشياء ؟

ـ بالتأكيد .. فعندما تكون المرأة جميلة أحب دائما أن أعرف ما اذا كانت متزوجة أو غير متزوجة ..

وبعد هنيهة قال لها : « هل أجد لديك بعض الخمر يا راشيل ؟ »

فأجابت : « نعم . عندى كونياك » . وعاد يقول : « اننى أشعر بالجوع كذلك » . فقالت : « اذن ستأكل » . قال : « ولكننى سأشرب أولا » . فقالت : « حسنا ، ستشرب أولا » . ولكنه لم يقنع ، فعاد يقول : « وستأكلين وتشربين معى » .

ـ أعتقد أنك ستكون ـ كأغلب الاطباء ـ مريضا متعبا..

ثم ابتسمت قائلة : « نعم سآكل وأشرب معك » .

***

وخرجت متجهة الى مكان ضارب الطبول ، فطلبت اليه أن يبعث برسالة الى الحاكم الابيض فى (روجيرى) ، يقول فيها : « ان طائرة قد تحطمت ، ومات سبعة رجال ، وأمكن انقاذ واحد يرقد الآن فى المستشفى . احضر غدا » . ثم أسرعت الى المنزل ، حيث أصدرت تعليماتها الى « جوتا » بأن يرسل غداء لاثنين فى المستشفى . **وقررت أن ترتدى فى هذا المساء فستانا وجوربا ، بدلا من زيها شبه العسكرى ، وأن تضع فى قدميها الحذاءين ذوى الكعبين الطويلين . ثم راحت تبحث عن زجاجة العطر ، وقد تملكها الخوف من أن تكون قد تبخرت ، ولكنها وجدتها كما كانت .**

وانطلقت فى الظلام ، حاملة المصباح فى يدها . ولكنها تذكرت الكونياك فجأة ، فعادت مسرعة وأحضرته ، وأحضرت معه كأسا واحدة .. ولكنها عادت فقررت أن تأخذ كأسين . وما بلغت المستشفى ، حتى بادرها المريض وقد فرغ صبره من الانتظار : « ماذا كنت تفعلين ؟ » . ثم ابتسم قائلا : « أوه .. انه فستان من باريس ؟.. استديرى لاراك من الخلف » ،

ولكنها لم تستدر ، وان كان قد سرها قوله !

وصاح حين رأى زجاجة الكونياك قائلا : « بديع .. انه لنوع معتق نادر .. هل تشربين معى ؟ » . فقالت فى صوت خافت : « نعم » . فملأ كأسا وقدمها اليها ، ثم ملأ كأسا لنفسه ، ورفعها الى فمه قائلا : « فى صحتك يا راشيل ! » .. وجرع كأسه دفعة واحدة . وما لبث أن حدق فى وجهها قائلا : « لماذا أتيت الى افريقيا ؟ » ..

وعندئذ شعرت — دون أن تدرى لذلك سببا — بالدموع تنساب من عينيها ، فربت يدها قائلا : « آسف يا راشيل .. لم أقصد أن أقول .. »

— انت لم تقل شيئا .. كل ما هنالك أنك جعلتنى احس بأننى أعيش بعيدا عن الحقيقة كل هذا الزمن الطويل .

— دعينى أحدثك عن الحقيقة يا راشيل .. ان الحقيقة هنا .. أما فى أوروبا ، وأما فى الولايات المتحدة ، فهناك الكابوس .. وما دمت لا تريدين أن تحدثينى عن نفسك ، فاننى سأحدثك عن نفسى .. لقد تخرجت فى جامعة « جونز هوبكنز » ، ثم تمرنت سنتين على الجراحة ، وفزت — بعد ذلك — بمنحة لقضاء سنة فى مستشفى بلندن .. وفى هذه الاثناء نشبت الحرب ، فخدمت فى سلاح الطيران البريطانى ، وأوفدت الى جنوب افريقيا لافحص بعض الفرق العسكرية التى يعدونها للقتال .. وهكذا جئت الى هنا .. هذه هى قصة حياتى .. فهل من سؤال ؟

— كلا .

— ولا سؤال ؟!

وابتسم وهو ينظر اليها ، وقد أيقن أن عقلها مزدحم بالاسئلة . ثم قال : **« ألا تريدين أن تعرفى شيئا آخر ؟..**

ألاتريدين أن تعرفى مثلا .. » . وتوقف ثم اردف قائلا : « حسنا .. اننى غير متزوج . »

وما لبثت أن حكت له كل شىء عن نفسها .. كل شىء .. حتى قصة رالف مورجان معها .

- ١٦ -

• وصل لوكومت فى الصباح الباكر ، وراح يقفز قفزا على درجات المنزل وهو يصيح مناديا : « راشيل ! » . فجاءت نحوه باسمة ، تقول : « ان عنـدى طبيبا للمستشفى » . فقال مندهشا : « غير معقول » .. وروت له بالتفصيل ما حدث ؛ حتى اذا انتهت ، نظر اليها نظرة غريبة ، ثم قال : « **هذا الرجل يجب أن يعود لأداء واجبه بمجرد أن يكون فى استطاعته الرحيل !** » ، فقالت : « طبعـا ، ولكنى أرجو أن يمكننى الانتفاع به ـ حين يستطيع أن يقف على قدميه ـ فى اجراء بضع عمليات جراحية أنا فى أشد الحاجة الى اجرائها هنا » . فنهض على قدميه قائلا : « فلنذهب لنراه ! » .

وكان بول نائما ، وقد استلقى على ظهره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة .. وبدا جميلا فى هذا الوضع ، كأنه طفل نائم . فتمتم اوكومت قائلا : « يا الهى . انه جميل جدا ! » . ومالت هى عليه توقظه ، قائلة فى همس : « بول .. بول ! » . فبدت ـ وهى تفعل هـذا ـ كعاشـقة توقظ حبيبهـا .. وما لبث أن فتح عينيه وابتسم ، فقالت له : « بول .. هذا هو مسـيو لوكومت .. حاكم الاقليم » . وقال لوكومت : « صباح الخير يا صديقى .. كيف حالك ؟ » . ومد يده مصافحا ، فمد بول يده قائلا : « صباح الخير » . ثم حدق فيه قائلا فى برود : « أظنك تريد معلومات ؟.. حسنا .. سأفضى اليك بما عندى » .

واخرج لوكومت مفكرة صغيرة من جيبه ، واستعد الكتابة ، فى هيئة رجل البوليس الذى يتولى تحقيقا . فضحكت راشيل قائلة : « بالله لا تكن جافا هكذا يا بول .. هذا صديقى الطيب هنرى لوكومت ، وهو فنان رقيق جدا » . وبذلك خففت من جو التوتر الذى كان يسودبينهما. ونظر بول الى راشيل قائلا : « صباح الخير يا راشيل .. نسيت أن أقول لك أنك تبدين جميلة جدا هذا الصباح ».

فتنهد لوكومت قائلا : **« لقد احتجت الى وقت طويل كى أجرؤ على أن أخاطبها براشيل ، فلم أكن أقول لها الا مس كيد . أما أنت !.. »** ثم هز كتفه قائلا : « آه منكم أيها الأمريكيون .. وكم تنوى أن تمكث هنا ؟ »

ــ أعتقد أننى احتاج الى شهر حتى يبرأ هذا الكسر .. هل ستكتب ذلك فى تقريرك ؟

ــ نعم ، سأرسل برقية من مكتبى اليوم .

فقال وهو ينظر الى راشيل : **« اذن قل لهم اننى أحتاج الى ستة أسابيع على الأكثر ، حتى يمكننى أن أتحرك .. وربما أكثر من ذلك .. انه كسر فى الساق ، واصابات فى الرأس ، واصابات داخلية ..** والاصابات الداخلية هى التى تقنعهم دائما ، فهم لن يستطيعوا أبدا أن يعرفوا ما هى ! » .. فبدا الضيق على لوكومت وهو يحك أنفه وينظر فى مفكرته ، واستطرد بول قائلا : « والآن ، سأعطيك كل المعلومات التى فى استطاعتى .. »

وبعد أن سجل لوكومت ملاحظات بول عن ارتفاع الطائرة، ثم سقوطها ، وعن الضحايا ، أغلق مفكرته وجلس هنيهة يشرب القهوة ، ويسأل عن الحرب فى أوروبا . ثم لم يلبث أن انصرف ، ترافقه راشيل الى سيارته .. وكان يسير الى جانبها ، متعبا ، صامتا ، مطأطىء الرأس ، حتى اذا اقتربا

من السيارة ، استدار اليها ، ومد يده قائلا : « كونى شديدة اليقظة على نفسك يا راشيل .. لست قلقا على دكتورك الجميل ، فانه سيعتنى بنفسه ، وانما أنا قلق عليك أنت .. الى اللقاء ، ولن أجىء مرة أخرى الا حين تطلبيننى » .

***

وفى الصباح التالى ، جلس بول فى سريره ، وراح يراقب الصف الطويل من المرضى القادمين الى المستشفى . ولم يقل شيئا حين أرته راشيل حالات القرحات والجروح ، حتى أقبلت امرأة تحمل طفلا ، وقد تضخمت غدتها الدرقية . وأشارت الى عنقها قائلة : « أنظرى يا مدام ! » . ثم نكست رأسها فى تعاسة ، فقال بول : « ماذا تفعلين فى مثل هذه الحالات ؟ » .. قالت راشيل : **« لا شىء . ماذا يمكننى أن أفعل ؟.. ان المرأة نفسها تعرف أننى لا أستطيع أن أفعل لها شيئا . فقد سبق لزوجها أن كلمنى عنها ، وصارحته بعجزى عن علاجها .. ولكنه سمع الآن أنك موجود هنا ، فأرسلها ، اذ عرف أنك طبيب » ..**

فقال بول : « دعيها تقترب ! » فأخذت راشيل المرأة من ذراعها ، وقادتها الى سرير بول ، الذى فحص عنقها ، ثم قال : « ماذا يحدث لو اننى أجريت جراحة لهذه المرأة فماتت ؟ » قالت راشيل : « ستفقد سمعتك فى دايبيلا . ولكن هذا لن يستمر طويلا ، فانك بجراحة أخرى ناجحة تسترد سمعتك بين الأهالى » . فابتسم قائلا : « هل تحبين أن تتخلص المرأة من مرضها ؟ » .. قالت : « طبعا » .

— اذن قولى للمرأة أن تعود بعد أسبوع ، فقد يكون فى استطاعتى — اذ ذاك — أن أغادر الفراش ، وربما أمكننى أن أصنع لها شيئا .

وشعرت راشيل بسعادة عظيمة تباغتها ، وهرعت الى المرأة ، وطلبت اليها أن تعود بعد سبعة أيام .

ثم أشار « بول » الى رجل متوسط العمر كان يقترب وهو يعرج ، وقد تضخم فخذه بشكل فظيع . وقال : « فلنلق نظرة على هذا ! » . فأشارت راشيل الى الرجل ، الذى اقترب فى بطء ، وأدار ساقه ناحية الدكتور ، ففحصه ثم قال : « اننا فى حاجة الى أشعة اكس للكشف عليه ، ولكن اسأليه : هل يشعر بألم ؟.. ان هذا المرض يسبب آلاما فظيعة » . فقالت : **« مهما يتألم ، فانه سينكر ذلك ، لأن من العار فى نظر الافريقيين أن يظهروا الألم ، اذ يعتبرون ذلك طعنا فى شجاعتهم .. ولكن ، يكفى أن تنظر فى عينيه لتعرف أنه يعانى ألما فظيعا »** .

ـ اذن اسأليه هل يفضل أن يفقد ساقه أم تبقى مريضة ؟

ـ الأفضل أن تقرر أنت ، فمن الصعب عليه هو أن يقرر .

ـ اذن قولى له أن يعود بعد سبعة أيام .. بل انتظرى !.. يكفى خمسة أيام . لعنة الله على هذه الساق المكسورة .

ولم ينتصف النهار ، حتى كان بول قد فحص ثلاثة عشر شخصا ، وقال انه سيجرى لهم جراحات . وكان كواو وموزينجا وكوزينجو ومزيمبا ينظرون اليه فى احترام شديد ، **فقالت راشيل فى نفسها : « لكأنه اله ! » .. ثم اضطربت اذ خطر لها أنه سريعا ما سيرحل ، ولن يفهم الأهالى هنا لماذا رحل .**

وبعد الظهر حملوا سرير بول ، ووضعوه فى ظل شجرة « الليمبالى » ، بالقرب من الصليب الأبيض المنتصب على قبر الدكتور بايكل . وهناك جاء «جوتا» بالفداء له ولراشيل .. وظلا بعد الفداء يتحدثان طويلا . وما لبث أن أغلق عينيه نصف اغلاقة ، وقال : « ما أبعدنى هنا عن التفكير فى شىء..

اننى هنا لا أعرف ماذا أريد » .
ـ هل كنت قبل ذلك تعرف ماذا تريد ؟
ـ بالطبع كنت أعرف ما أريد . كنت أريد النجاح .. أريد أن أكون غنيا .. أن أكون جراحا شهيرا وغنيا !.. أن ذلك يبدو أقرب الى أفكار الأطفال ، أليس كذلك ؟.. ولكنه الحقيقة . اننى أعرف أن هناك أطباء كثيرين لا يعنيهم أن يكونوا أغنياء ، وأنا أحترمهم اذا كانوا قديرين .. وأعرف كثيرين يريدون أن يكونوا أغنياء ، وأنا أحترمهم اذا كانوا قديرين .. ان الذى يهم هو الكفاءة والمقدرة !
ـ مادمت تريد أن تكون غنيا ، فلابد أنك كنت فقيرا .
ـ نعم ، كنت فقيرا ، وقد نشأت فى مدينـة فقيرة .. ولكننى لا أشعر لذلك بأى مرارة ..
ـ ذلك لأنك لاتعرف العواطف .
ـ لا أعرف العواطف ؟ أتعنين أننى .. بارد ؟
ـ لا أعنى ذلك بالضبط .. والدليل على ذلك مثلا أنك انضممت الى سلاح الطيران البريطانى ، حين نشبت الحرب، ولم تسافر ـ مؤثرا السلامة ـ الى بـلادك لتصبح دكتورا شهيرا وغنيا . لقـد رأيت البريطانيين فى مأزق وأردت أن تسدى لهم مساعدة ، كما فعلت حين رأيت المرضى هـذا الصباح ..
ـ ان الأمر يختلف ، فأنا هنـا أردت أن أرد اليك بعض جميلك . لقد أنقذت حياتى ..

ولم تكن تنصت اليه ، فقد خطر لها خاطر شغلها .. « ان امرأة ما ستحبه ذات يوم حبا عنيفا » . ثم خطر لها خاطر آخر : « **ربما أنا التى سيقدر لها أن تحبه !** » .. وصدمها هذا الخاطر الأخير ، فتحركت متململة فى مقعدها .. « ان ذلك بالطبع غير ممكن ، فهو سيرحل عما قريب ، وستبقين

انت هنـا ، ولن تريه بعـد ذلك أبدا .. اذن فـكرى فى أشياء أخرى !.. ابعديه عن الفكر كما هو بعيد عن الجسد ! »

***

وحين تنبهت من أفكارها ، وجدته يحدق فيها بعينيه ، ثم مال عليها قائلا : « راشيل ، اننى .. » . وقبل أن يتم عبارته ، برز كولو ، وخلفه الرئيس بودرجا يحمل حربة طويلة . وتكلم كولو ، ولكنها لم تسمعه ، فقد كانت تفكر متسائلة : ماذا كان بول يريد أن يقول ؟

وتقـدم بودرجا خطـوة ، ومد يده بالحربة الى بول . فأسرعت راشيل تقول : « انه يهديك حربتـه .. صـافحه يابول ! » . فصافحه بول وقبل هديته .. وقال بودرجا انه سعيد بمقدم الدكتور الأبيض الى دايبيلا . ثم سأل ، هل يمكن للدكتور أن يجعل صغرى زوجاته تنجب طفلا ؟.. وترجمت راشيل كلامه ، فسأل الدكتور : « هل سبق له أن أنجب أطفالا من قبل ؟ »

ــ أنجب ست بنات من زوجتين .. ولكنه شديد الشغف بزوجته الثالثة ، وهى صغرى زوجاته .. انه يحبها أكثر من الجميع .

ــ اذن فلتأت هذا المساء .

فما أنبأت بودرجا بذلك ، حتى انطلق يجرى وهو يكاد يطير من الفرح . فقال بول : « لابد أنها جميلة ! »

ــ نعم انها جميلة .. ولكن عادة ختان البنات هنا تؤثر عليهن .

ــ انهن اذن لا يتمتعن بالحياة الزوجية كما يجب .

فتضرج وجه راشيل ، وحولت عنه عينيها وهى تحس بأنه ينظر اليها .. فيم كان يفكر وهو ينظر اليها ؟

ـ حسنا يا راشيل .. اليس هذا صحيحا ؟

ـ أظن ذلك .. ولكن الرجال هنا يعتقدون أن هذا يضمن لهم اخلاص المرأة ، ويكتفون باللذة العميقة التى يجدونها فى انجاب الأطفال ، والعمل ، والاستقرار .

وفى المساء ، تناولا العشاء معا فى منزلها . ثم راحا يتحدثان ، حتى اذا انتصف الليل ، قالت له : « ان عندى مفاجأة لك » . فنظر اليها فى دهشة قائلا : « لا تقولى لى ، بل دعينى أخمن .. لعلك ستنقليننى من المستشفى ، وسأبقى هنا معك » . قالت : « ليس ذلك بالضبط .. وانما ستقيم فى الكوخ المقابل للمنزل .. لقد جعلتهم يعدونه لاقامتك » .

فأشار نحو الظلام قائلا : « ولكننى سأعانى الوحدة هناك .. اننى لا أحب أن أكون وحدى فى الظلام » . فقالت وهى تضحك من كلامه الذى كان يقلد به الأطفال : « ان تكون وحدك ، فان كولو سينام عند بابك » . وما قالت ذلك حتى ظهر كولو وكوزونجو ، فأومأت اليهما قائلة : « ان الدكتور الأبيض مستعد الآن لأن يذهب الى منزله » ، فنظر اليهما ضاحكا ثم استسلم لهما فحملاه الى الكوخ .

ـ ١٧ ـ

• **ظلت** راشيل ـ فى الأيام التالية ـ تقول فى نفسها انها سعيدة بوجوده ، فانه سيقوم باجراء عدة جراحات لازمة جدا قبل رحيله . **ولكنها كانت تقول فى نفسها ـ أحيانا ـ ان وجوده كان خليقا بأن يسعدها ولو لم يكن طبيبا ، لأنه جعل الأشياء الصغيرة فى الحياة تغدو ذات قيمة بالنسبة اليها ..** فقد أصبح تناول الغداء متعة بالنسبة اليها ، بعد أن كانت تلتهمه بطريقة آلية وهى وحدها . وقد كان حمامه

الأول بمساعدة كولو وكوزونجو يبدو لها ـ وهم يضحكون ويصخبون ـ كأنه الحمام الأول لطفل صغير .. وقد ضحك من قلبه حين البسوه قميصا وسروالا من مخلفات الدكتور بايكل ، فقد كانا صغيرين جدا عليه .. وشعرت بسعادة عظيمة حين قضت الليل كله تقريبا فى توسيع قميص وسروال ليطابقا مقاسه .

ولكن الفرحة الكبرى كانت حين استند الى كولوومزيمبا ونهض عن فراشه ، وخطا بضع خطوات . وقد ازدادت قدرته على المشى ـ بعد ذلك ـ يوما بعد يوم ؛ حتى اذاكان اليوم السابع من وصوله ـ وليس اليوم الخامس كما كان يأمل ـ أصبح مستعدا لاجراء الجراحات ، وقد بدابجراحة الرجل ذى الساق المتضخمة . ولم يسع راشيل الا الاعجاب ببراعته وقدرته .. كان ابرع وأقدر من الدكتور سبنسر ذاته . وقد اضطر الى استئصال الساق ، ومن ثم كانت جراحة مرهقة جدا ، فلم يتمكن من اجراء جراحة المرأة ذات الغدة الدرقية فى ذات اليوم ، ولكنه اجراها بنجاح فى اليوم التالى . وفى المساء ، أجرى جراحةلصغرى زوجات بودرجا .. وفى اليوم الذى يليه امكنه ان يجرى اربع جراحات .. وفى اليوم الذى بعده خمس جراحات .. وانتشرت أخباره فى كل انحاء الوادى ، فكان صف المرضى فى المستشفى يزداد طولا يوما بعد يوم .

وفى مساء اليوم الخامس عشر بعد مجىء الدكتورالأبيض الى دايبيلا ؛ صعد ـ وهو يعرج ـ سلم منزل راشيل ، وصاح قائلا : ((**راشيل .. دعينا نداعب تلك الزجاجة من الكونياك المعتق النادر مرة أخرى .. اننى فى حاجة لأن أشرب اليوم**)) . ثم وضع يده فى جيبه واخرج سيجارة

وقال : « لم يبق من سجائرى البلايرز الا واحدة غير هذه » .

فأتت بزجاجة الكونياك وكأسين ، وجلست بجانبه على المائدة .. ولم تكن تريد أن تشرب ، ولكنها كانت تدرك اهمية مشاركته . كانت تشعر بأهمية وجوده هنا ، سواء أكان طبيبا أو لم يكن .

وتناول الزجاجة ، فملأ الكأسين ، ثم قال : « اقتربى منى لنشرب معا ! » . فدفعت مقعدها دون تردد حتى لاصق مقعده ، وقد ندت عنها آهة ارتياح . **واستدار اليها حاملا كأسها ، فلما مدت يدها لتأخذها ، أبعد الكأس ثانية .. وكان وجهه قريبا جدا من وجهها .. وأحست بأنفاسه ، فأغمضت عينيها ، واقتربت شفتاه من شفتيها بنعومة ، فى أول الأمر ، ثم بعنف بعد ذلك .**

وشعرت بتيار عجيب يسرى فى جسدها فيجعلها ترتعد . ثم أحاطها بذراعيه ، وضمها الى صدره ، فأدارت النشوة رأسها ، واسترخت ذراعاها . ولكنها مالبثت أن استردت وعيها ، ودفعته عنها بلطف أولا ، ثم بقوة . وانتصبت وهى تتمتم قائلة : « كلا . كلا » . فقال فى انفعال : « كلا ؟ » . قالت « كلا » . واستدارت حتى أصبحت المائدة بينهما ، ثم قالت : « الأفضل أن تشرب وحدك .. لا رغبة لى فى الشراب » . فقال « حسنا » .

ورفع كأسه وجرعها ، ثم انتصب على قدميه فى حركة عنيفة ، وسار نحوها وصاح قائلا : « كولو » . فأجاب كولو قائلا : « نعم ياسيدى الدكتور » . وجرى نحوه ، فأشار الى كوخه قائلا : « سأتناول عشائى هناك » . ونزل وهو يعرج على السلم .. دون ان ينظر خلفه .

***

وجلست الى المائدة وراحت تتطلع الى السماء التى صفت بعد مطر استمر أربعة أيام . وراح جوتا يتحرك فى صمت بين المائدة والمطبخ ، ينقل الطعام الذى لم تمسه . بينما كان كولو يسير جيئة وذهابا بين المنزل والكوخ المقابل . وكانت الذئاب تعوى فى الوادى ، والكلاب ترد عليها فى القرية .

وراح يدور فى ذهنها هذا السؤال : ((ماذا دهانى ؟)) .. كانت تعلم أن مشكلتها ليست معه هو فى الواقع وانما مع نفسها .. انه يريدها ، وهى تريده كذلك .. أو على الأقل هى تريده على أى حال ، واذن فلماذا صدته ؟

وأخذت تنتظر — فى توتر — وقع خطواته ، وقد اتضح لها كل شىء .. لقد كانت فى الأيام الأخيرة كلها تنتظر وقع خطواته ، وهو يجىء ويذهب ، وهى ذاهلة عن نفسها، ترسم لنفسها ملامحه ، وتفكر فيما يقول .. **أهذه اذن هى العاطفة التى يسمونها الحب ؟**

ونهضت فراحت تذرع غرفتها ، وهى تحاول أن تفكر . ماذا عساها تفعل ؟ .. لو انها مضت معه فى هذا الأمر ، فلن تستطيع أن تنفصل عنه بعد ذلك أبدا . ولكن ظروف الحرب تجعل ذلك مستحيلا .. اذن ، فثمة شىء واحد ينبغى أن تفعله : **وهو أن تنساه !**

وأخذت كتابا ففتحته ، وراحت تحدق فى صفحاته ، على النور الخافت للمصباح . حتى اذا سمعت وقع أقدام ((بول)) أغلقت الكتاب ، وراحت تحملق فى الظلام .. فلما لمحته ، راحت تناديه بصوت هامس . ولكنه لم يلتفت الى ناحيتها ، فنادته مرة أخرى ، فقال بجفاف : ((آسف .. لقد كنت مغفلا !)) .. فقالت : ((كلا . انس ماحدث !))

ونظر ناحيتها قائلا : **((المشكلة ياراشيل أننى لا أستطيع**

أن أنسى .. لن أنسى .. وأعتقد انه من الافضل أن أذهب .. أرجوك أن تتخذى التدابير لترحيلى من هنا .. ابعثى رسالة بذلك عن طريق الطبول الى اوكاومت .. والأفضل أن أرحل من هنا غدا » .

ولم تستطع أن تقول شيئا ، وقد انفرجت شفتاها ولكنها لم تنبس بكلمة واحدة .. نعم ، كان من الافضل أن يرحل سريعا . وأخيرا قالت بصوت خافت : « حسنا » .

ـ كم جراحة تقرر اجراؤها غدا ؟ .. ثلاث ؟

ـ نعم .

ـ سأجريها غدا قبل أن اذهب .

وصمت قليلا ثم قال : « ولكننى لن أجرى جراحات بعد ذلك » . فقالت فى تؤدة : « حسنا يابول » .. وعاد يقول : « **يجب أن أذهب . أتفهمين ؟** »

ـ نعم يابول . أفهم .

ـ مساء الخير .

ـ مساء الخير يابول .

وسمعت خطواته وهو يبتعد فى الظلام ، فأطفأت المصباح ، وذهبت الى غرفة نومها .. وهناك خلعت ملابسها فى الظلام ، وارتمت على السرير ، ثم انفجرت باكية .

***

وعند الفجر استيقظت ، فما أن مست قدماها الارض ، حتى تذكرت أن هـذا الصباح كان يختلف عن سواه .. وظلت جالسة على حافة الفراش ، محدقة فى الارض . ثم نهضت ببطء ، فى آخر الامر .

وكانت تتناول قهـوتها حين جاء وانجا ، وابتسم لهـا قائلا : « لقد أخذت السيارة يا مدام دون اذنك قبل أن

تستيقظى . فقد جاء صديق لى من قرية بالقرب من روجيرى ـ وكان الدكتور الابيض قد أنقذ حياة عمه ـ وقال لى ان ابن عمه يموت ، ولا يستطيع المجىء الى المستشفى ، فذهبت الى كولو ـ فى منزل الدكتور ـ ولكن كولو لم يستطع ايقاظه ، فقد كان متعبا جدا من كثرة العمل يامدام . وعلى ذلك أخذت السيارة وأتيت بالمريض الى المستشفى . فهل سيراه الدكتور يامدام ؟ » .. فقالت : « نعم سيراه . خيرا فعلت يا وانجا » .

وطرحت معطف المطر على كتفيها ، وأسرعت الى المستشفى تحت وابل المطر . وبرغم أن الوقت كان مبكرا جدا ، فقد كان صف من المرضى يمتد أمام المستشفى ، فقالت فى نفسها : « ان أمامنا عملا كثيرا » .

وهناك وجدت الطفل المريض مستلقيا على ظهره ، منتفخ البطن بصورة فظيعة .. وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره . وقد أخذ جبينه يتفصد عرقا ، بينما جلس أبوه بجانبه . فما رأى راشيل حتى راح ينظر اليها فى ضراعة وتوسل . وابتسم الطفل لها وقال : « جامبو يامدام . هل سأموت ؟ » . فقالت : « لن تموت اذا أمكننا انقاذك يابنى ! » . وفى هذه اللحظة دخل كولو ، فنادته قائلة : « أسرع يا كولو ، وقل للدكتور أن يحضر فى الحال » . فهز رأسه فى اضطراب قائلا : « أوه يامدام .. من الصعب ايقاظه اليوم ، فهو لا يريد أن ينهض .. »

ـ هل هو مريض ؟

ـ كلا يامدام ، ولكنه ..

ثم صمت وأتى باشارة يائسة . فانطلقت خارجة من المستشفى ، دون أن ترتدى معطف المطر . وأسرعت تحت السيل المنهمر الى كوخ بول .. وهناك ، وجدته راقدا على

سريره ، يحدق فى السقف . فقالت فى حدة : « انهض من فضلك ! » . ونظـر اليها وهو يبتسم ابتسامة باهتة ، ثم قال : « لماذا ؟ »

ـ لان لدينا مريضا فى حالة سيئة جدا .

ـ أعتقد أننا اتفقنا على أنك ستطلقين سراحى ، بعـد أن اجرى تلك الجراحات الثلاث الاخيرة ..

وفى هذه اللحظة قفزت الى مخيلتها صـورة الطفل وهو يقول : ((هل سأموت يامدام)) . فقالت فى نفسها : ((لن أطلق سراحه أبدا . ان كل يوم يمكثه هنا ، معناه انقـاذ حياة شخص واحـد على الأقل !)) . واذ اتخـذت ـ بينها وبين نفسها ـ هذا القرار ، شعرت براحة عظيمة .

قالت له : « لعلك لم تسمع ما أقول . ان ثمـة طفلا فى المستشفى ، فى حالة خطيرة ، وأنت دكتور » . فأجاب : « لقد سمعت . وسأجىء معك ! » .

وهم بأن يلقى عنه الغطـاء ، ولكنه توقف قائلا : « انني عارى الجسم .. فالافضل أن تستديرى وتذهبى ياراشيل !» .. قالت : « كلا ، لن أذهب .. فأنت لاتزال فى حاجة الى من يعاونك فى ارتداء ملابسك وأنا .. » .

فزمجر قائلا : « اذهبى ياراشيل من فضلك .. وسألحق بك بعد دقيقتين » .

***

وخرجت راضية ، وكأن مشـكلة رحيله قـد حلت الى الابد .

وفى الخارج ، قابلها كولو ، متسائلا فى اهتمـام : « ألن ينهض يامدام ؟ » . فقالت : « لقـد نهض يا كولو .. هات لى بعض القهوة الساخنة من فضلك » .

وتطلع اليها فى اعجاب ، وكأنما صنعت معجزة . وانطلقت هى الى المستشفى .. وكانت تقيس حرارة الطفل حين جاء بول يعرج .. واستمرت الجراحة ساعتين ، حتى اذا انتهى بول منها ، جلس فى اعياء وهو يقول : « أعتقد اننى أستطيع أن أدخن هذه السيجارة الباقية ! »

ثم أخرج آخر سيجارة « بلايرز » من جيبه واشعلها . فقالت راشيل : « لقد عملنا على أن نحصل لك على بعض السجائر » .

فأطلق سحابة من الدخان فى اتجاهها ، وراح يحدق فيها بامعان . وصاحت هى قائلة : « كولو .. أين وانجا ؟ » .

فأجابها : « هنا يامدام » .

وظهر وانجا لدى الباب ، فقالت له : « اسمع ياوانجا .. هناك قائمة ببعض الاشياء على مكتبى فى البيت ، فخذها الى الحانوت ، واشتر الاصناف الواردة بها » . ثم أخرجت ورقة من جيبها ، وكتبت عليها بالفرنسية : « عشر علب سجائر (بلايرز) ، أو أحسن نوع ممكن » .. واعطته اياها قائلة : « خذ هذه كذلك ، واذهب فى الحال ، وعد فى الحال كذلك » .

فقال بول : « الى أين هو ذاهب ؟ »

— الى روجيرى .

— اذن يمكننى أن أذهب معه .

— ولكن أمامك ثلاث جراحات تعهدت باجرائها .

فابتسم قائلا : « نعم . ثلاث جراحات ! »

فصمتت قليلا ، ثم قالت : «ماذا تحب أن تأكل فى الغداء ؟» .

فنظر اليها طويلا ، ثم قال أخيرا : « أوه . فلنأكل شيئا مختلفا .. لنأكل لحما مشويا ! » ..

***

وكان الظلام قد خيم ، والمطر ينهمر غزيرا ، حين أتما عمل اليوم فى المستشفى . وقال « بول » لراشيل أنه اعتزم ان يغتسل ثم يوافيها فى الساعة الثامنة ..

وكانت تنتظره فى قلق ، حين وصـــل فى الموعد ، فخلع معطفه وهو يقول : « ما من شىء يعدل الوصـول الى البيت بعد يوم شاق » . فحركت يدها بسرعة قائلة : «خذ هذه !» وناولته علبة زرقاء اللون من السجائر ، فأخذها ببطء وقرأ عليها بصوت مرتفع : « توباكو الكونغو البلجيكى » . فقالت معتذرة : « انهـــا ليست بلايرز .. فما عندهم منها » .. فهتف قائلا : « راشيل .. انك فتاة رائعة ! »

وتناول يدها وقبلها قبلة حارة . فقالت وهى تدور على عقبها : « هل تعرف ماذا نفعل بالكونياك ؟ »

ــ يمكنك أن تشربيه .

ــ أعنى اننا ليس لدينا ثلج .. فهل لديك وسيلة يمكننا بها أن نجعله أحسن مذاقا ؟

ــ كلا ياطفلتى .. عليك فقط أن تتعلمى كيف تحبينه .

« ياطفلتى ! » .. وقعت هـــذه الكلمة من نفسها موقعا غريبا . كانت خليقة بأن تغضب او وجهها اليها اى شخص آخر ، ولكنها حين سمعتها منه هو ، شعرت بسعادة عجيبة .. كل النعوت التى يناديها بها كانت تسعدها !

وصاح وهى تصب الكونياك فى كأسه : « رويدك .. اتركى شيئا لنفسك ! » . فقالت : « هــل تغضب اذا لم اشاركك الشراب الليلة يابول ؟ » . فقال : « طبعا لا » . ثم اخــذ كأسه وأخرج علبة السجائر ، فقـــالت : « يمكنك يابول أن تدخن كل مافى العلبة ، فقد أتاك وانجا بعشر منها » . وهتف : « عشر علب ؟ .. انه لشىء رائع . أشكرك ياراشيل » . ثم

رفع كأسه قائلا : « فى صحتك ياراشيل ! » ، وأفرغ مافى الكأس دفعة واحدة .

وظلا فى أول الامر صامتين ، ثم تبادلا كلمات قليلة وهما ينصتان الى وقع المطر المنهمر .. وقالت له : « **هل تريد مزيدا من الكونياك ؟** » .

ـ كلا ، أشكرك .. ربما ينبغى أن نحتفظ ببقية منه .

ـ **ان ثمة زجاجة أخرى غير مفتوحة ، لم أقل لك عنها شيئا .**

ـ هل اخفيتها عنى ؟

ـ **بول .. ثمة زجاجتان لا واحدة .**

وعندئذ أنطلق يضحك من قلبه بشكل لم تعهده منه من قبل .. وفتنتها منه طريقته هذه . وما لبثت أن قالت له : « أتحب أن تأكل يابول ؟ » . فهتف : « بالتأكيد . فاننى اكاد أموت جوعا » .

وذهبت الى المطبخ ، فطلبت الى جوتا اعداد الطعام . وبعد العشاء ، نهضت الى غرفة نومها ، وهناك راحت تخلع ملابسها بسرعة ، وبيدين مرتعدتين ، وكأنما انتابتها الحمى .. ثم نادته قائلة : « بول .. هلا أتيت الى مخدعى ؟ »

- ١٨ -

• **وأصبح** بقاء «بول» ضرورة لابد منها ، لانها لن تستطيع ابدا ـ بعد الآن ـ أن تتوقف عن الرغبة فيه .. **يجب أن يبقى ، لا من أجل المرضى فى (دايبيلا) ، وانما من أجلها هى .**

لقد أحبته حبا ملأ عليها دنياها ، وأدار راسها ، حتى خالفت ـ فى سبيل هذا الحب ـ تعاليم دينها الذى كانت تبشر به الاهالى ، فزنت مع هذا الغريب .. ولقد أدركت ان أهالى (دايبيلا) جميعا باتوا يعرفون ما بينهما .. كانوا

يعرفون أنهما يقضيان الليل كله معـــا ، ثم يخرجان معا فى الصباح كأنهما عروسان .. **ولم يكن يهمها أن يعلم النـاس جميعا بكل شىء ، مادامت تحبه .. الا أن ما كانت ترجو الا يعرفه أحد هو أنه لم يقل لها حتى هذه اللحظة : « أحبك ! »**

وذات صباح ، أخذته وانطلقت به صوب الجبال ، متجهة فى ذات الطريق التى سبق لهـا أن سلكته . وكان قد مضى أسبوعان على تلك الليلة التى منحته فيهـا مالم تمنحه من قبل لأحد سواه ، وقد ظلا مصعدين حتى بلغا مرتفعا يشرف على ذرى الجبال وهى تناطح السحاب ، فأثار المنظر مشاعر بول ، والتفت اليها قائلا : « ياله من منظر رائع !. فلنتوقف هنا قليلا ونتناول شيئا من الطعام ، فاننى أكاد أموت جوعا » .. وجلسا فى ظل شجرة من أشجار « البالميرا » ، تنتصب على حافة غدير يتدفق بين الصخور . وما لبث أن قال لها :

ـ ياله من مكان . وددت لو أبقى هنا الى الابد .

ـ هل تستطيع ذلك يابول ؟

ـ بالتأكيد أستطيع .

ـ أعنى هل تستطيع أن تبقى هنا فى دابيبلا بقية حياتك ؟

ـ كلا . كلا لا أستطيع .. ولا أنت تستطيعين .

ـ ولكننى أستطيع أن أبقى ، وسأبقى .

ـ تبقين هنا الى الابد ؟ .. ولكن لماذا ؟ .. ماذا هنا غير مزيد من المرضى كـــل يوم ؟ .. أم تراك تريدين أن تنقلى المدنية الى هنا كما يقولون عادة .. تريدين أن تنقلى المدنية الى الفردوس فتفسديه .. كلا ، فلنتركه لأصحابه ليعيشوا فى سلام !

ـ اتركه وحدك اذا شئت . أما أنا فسأبقى .. فصمت برهة ثم قال فجـأة : « اسمعى ياراشيل .. حين أرحل ، فسترحلين معى . ان لديك جواز ســفر ، وسأساعدك فى

الحصول على تأشيرة خروج ، فخذى السفينة الى انجلترا .. انهم هناك فى حاجة الى ممرضات مدربات مثلك .. تعالى معى ! » .. وأحاطت عنقه بذراعيها ، ووضعت خدها على خده قائلة : « أوه يابول . أنت رقيق جدا . ولكن كلا . ان هذا غير ممكن .. انك تعرف ان هذا غير ممكن » . فطوقها بذراعيه ، وقال لها : « أحبك ياراشيل » . ونظرت اليه خلال دموعها ، وضغطت جسمها الى جسمه ضغطا شديدا ، فقال لها مرة أخرى : « أحبك » .

لقد قالها أخيرا .. وفاضت دموعها ، واتكأت بكل جسمها على صدره قائلة : « وأنا أحبك .. انك تعلم ذلك ! » . ووضعت شفتيها على شفتيه وقبلته بحرارة ، ثم قالت : « اننى سعيدة .. سعيدة .. هذا أسعد يوم فى حياتى ! » . ثم قالت : « هل نأكل الآن ؟ » فقال : « كلا . ليس الآن .. أنا لست جائعا الآن الى الطعام ، وانما اليك أنت ! »

***

وعادا الى المنزل عند الغروب ، يتهاديان ويداهما متشابكتان ، فما رآهما الأهالى حتى انطلقوا يصيحون : « جامبو .. جامبو ! » ، وهم يبتسمون كاشفين عن أسنانهم الناصعة البياض . **حتى اذا وصلا الى المنزل ، وجدا لوكومت فى انتظارهما .. فما رآه بول — عن بعد — حتى ارتاع ، وراح يعرج بشكل ظاهر . وتقدم اليه قائلا : « كنا نتمشى قليلا ، لندرب هذه القدم على المشى »** .

فنظر اليه لوكومت فى برود ، ثم قال : « لقد طال تمشيكما » . ثم التفت الى راشيل قائلا : « مرحبا بك ياراشيل . لقد أتيت حوالى الظهر ، وفضلت أن أنتظر » .

— أنا سعيدة لأنك انتظرت . هل أكلت ؟

ـ نعم . لقد تفضل غلمانك بتقديم الطعام لى أخيرا ، وان كنت أحس بعدم ترحيبهم بى . انهم يظنون اننى جئت لآخذه من هنا !

وأشار الى بول ، فقال هذا فى هدوء : «وهل هذا صحيح ؟» واذ ذاك ، أخرج لوكومت مظروفا من جيبه ، قائلا : « جئت لأسلمك هذا » . وقدمه لبول ، ففضه ، وقرأه ، ثم وضعه فى جيبه . وسألته راشيل فى توتر قائلة : « ماذا هنالك ؟ » ، فقال : « انه من أحد أصحاب الجلالة ، يأمرنى فيه بأن ارحل الى ستانلى فيل بأسرع مايمكن ، لكى يوجهونى هناك الى حيث يشاءون » .. ثم أردف قائلا فى تهكم : « يبدو أن صاحب الجلالة فى حاجة الى خدماتى » .

فقال لوكومت فى حدة : « صاحب الجلالة هذا هو الملك الذى اخترت أن تخدمه ؟ .. هل يمكنك أن تتجاهل الحرب التى تدور هناك ؟ .. ما من شىء ينبغى أن يعوقك عن الواجب الذى يناديك ، لا زوجة ولا .. » فقاطعه بول قائلا : « أنا غير متزوج .. لا زوجة لى » .. وهنا قال لوكومت : « وبهذه المناسبة ، لقد كان من دواعى حضورى هذه المرة أن أحد المواطنين هنا يريدنى أن أعقد زواجه .. كأنما لا يكفيهم ما أنوء به من مسئوليات ، فهم يضعون على عاتقى مهمة تزويجهم أيضا » .

وأدركت راشيل ما يلمح اليه لوكومت . لقد كان يعرف كل شىء بينهما ، فاعرب بلهجته عن رغبته فى أن يصحح الوضع بعرضه الزواج عليهما .. وألقى نظرة ثابتة على بول ، ولكن هذا ظل جامدا لا يبدى أنه فهم . لقد كان لوكومت يتربص له الآن ، وكأنه فخ منصوب ، ولكن «بول» لم يشأ أن يلقى بنفسه فى الفخ .. وانما حول دفة الحديث قائلا : «هل أنبأت السلطات بأننى شفيت ؟» . وكان

الجواب : « طبعا . لقـــد أخطرتهم بذلك مرتين .. وقد طلبوا منى أن أهيىء لك الرحيل الى ستانلى فيل » .
ـ حين أستطيع الرحيل .
ـ نعم حين تستطيع الرحيل .
ـ سيكون هذا بعد بضعة أسابيع .
ـ اسمع يادكتـــور بول .. فلنتكلم فى صراحة . انك تقوم بعمل عظيم هنا ، وقد كنت أود أن تبقى الى الابد . وانا اعلم أن راشيل تريد ذلك أيضا ، ولكننا ندرك ان هذا لا يمكن أن يكون .. ويجب أن أحـدد لهم تاريخا .. فماذا اقول لهم ؟
ـ قل لهم بعد شهر !
فقالت راشيل وهى ترتجف : « ثلاثة أسابيع » . ونظر الرجلان اليها ، ولكنها كررت كلمتها فى اصرار قائلة : « ثلاثة اسابيع » . ثم امتلأت عيناها بالدموع . فقال بول : « راشيل باطفلتى .. لا تدعى شـعورك بالواجب .. » . فقاطعته صائحة : « ثلاثة أســابيع .. » . ثم استدارت وانطلقت تجرى ـ وقد أظلمت عيناها ـ الى غرفة النوم ؛ وصفقت الباب خلفها .

ـ ١٩ ـ

لقد ظلت الاسابيع الثلاثة منطبعة فى ذاكرتها سنوات عديدة . فقد عملت مع بول خلالها عمــلا متواصلا . وكانا متحابين حبا عنيفا جارفا . **وفى هــذه الاثناء زارهما الاب جيلو وقال لهما : ((هــل أستطيع أن أفعل شيئا هنا .. كقسيس ؟)) ثم نظر الى بول قائلا : ((انني كاثوليكى ، وأنت بروتستانتى ، ولكن ..)) . فقاطعه بول قائلا : ((أنا لست بروتستانتيا .. ولست شيئا على الاطلاق)) ..** فقال الاب جيلو : « انك رجل لطيف يادكتور ، والمس كيد سـيدة

لطيفة ، فهل بوسعى أن أفعل شيئا .. كقسيس ؟ » .
فقال بول وهو ينهض على قدميه : « كلا ، لا شىء . أشكرك أيها القسيس .. ينبغى أن أذهب الآن الى المستشفى ، فالى اللقاء أيها الاب جيلو » .

واختطف المعطف وخرج تحت وابل المطر ، بينما راح الاب جيلو يتبعه بنظره ، وقد ملأت الدموع عينيه ، فقالت راشيل فى نفسها فى دهشة : « ياله من رجل رقيق الاحساس » .. ولم يلبث ان قال لهـا : « أنا آسف يامس كيد » . ثم وقف ونظر اليها فى عطف . فقالت له : « شكرا لك أيها الاب جيلو ، على زيارتك لنـا » . فالتفت اليهـا قائلا : « استدعينى فى اى وقت تشائين .. اذا كان ثمة ما يدعو لذلك » .. ثم خرج . وبعد هنيهة ، عاد بول ، وجلس صامتا لا يتكلم فترة طويلة . ثم قال أخيرا : « ياطفلتى . أنا أعرف لماذا جاء هذا القسيس . وقد فهمت ماذا كان يعنى لوكومت يوم الاحد الماضى حين .. » . ثم صمت وأمسك يديها بكلتى يديه قائلا : « هل تنتظريننى حتى تنتهى هذه الحرب اللعينة ياراشيل ؟ »

وقاومت الدموع ، ولكنهافشلت ، فهزت رأسهابالايجاب ، واسترسل قائلا : « سأنتظرك ياراشيل .. لا أعلم اذا كنت سأعود الى أفريقيا ، أو ستعودين أنت الى أمريكا ، اذا بقى شىء أسمه أمريكا بعد هذه الحرب الطاحنة .. ولكننا سنلتقى مرة أخرى على أى حال .. وسنتزوج ! » . فقالت فى لهفة : « متى ؟ » .. قال : « بعد الحرب » . ففتر حماسها ، وقالت فى خيبة رجاء : « بعد الحرب ؟ » .. قال : « نعم ياراشيل .. وسيكتب كل منا للآخر .. »

وصمت قليلا ثم قال : « ياللعنة ! لست أملك شيئا أعطيك

اياه كتذكار .. لقد انتشلتنى من بين الغابات » .. فقالت فى نفسها : « وقد تركتنى انت بين الغابات » !

***

وتتابع الزمن نحو اليوم الذى لم يكن منه مناص .
وفى ذلك اليوم الاخير ، نهضا عند الفجـــر ، كما يفعل الزوجان عندما يكون الزوج ذاهبا الى الحرب .. وما لبثت الرحبة الواقعة تحت شجرة « الليمبالى » أن امتلأت بجموع الاهالى ، فقد سمعوا أن الدكتور الابيض سيعود الى الحرب مرة أخرى ..
وحين خرجا الى الشرفة ، سرت الهمهمة بين الاهالى ، ثم ارتفع صوت امرأة من بينهم تولول .. ولم يلبثوا جميعا ان راحوا ينشدون أنشودة دينية علمتهم المدام اياها . ثم تقدم الرئيس بودرجا ـ يصحبه كولو وكوزونجو ومزيمبا وموزينجا وجوتا ووانجا ـ ووضع امام الدكتـــور درعا من دروع الحرب مكسوا بجلد النمر ، وتكلم ، فراحت راشيل تترجم .. قال أن الدرع هدية للدكتور الابيض العظيم ، من اهالى دايبيلا ، الذين يحفظون الجميل لمن يسدى لهم جميلا ، فتقدم بول وأخذ الدرع قائلا : **((اننى أشكركم ، ولست أدرى ما أقـــول الا أننى لن أنســـاكم أبدا ، وساعود اليكم يوما ما ، راجيا أن تعتنوا بالمدام أثناء غيابى)) .**
وتقدم كولو ، فأعطى الدكتور حربة طويلة محلاة بريش النسر ، وأراد أن يتكلم ، فاذا بالدموع تنهمـــر من عينيه ، دون أن يقـــوى على الكلام . فتقدم اليه بول واحتضنه كأنهما أخوان عزيزان ، فصاح الاهالى فى دهشة وفرح بهذا المشهد الفريد ، الذى لم يروا مثله من قبل .
وحين تقدم بول من السيارة التى تأهبت لنقله ، امتدت

أيدى الاهالى جميعا تريد أن تصافحه .. لقد اعتادوا ان يحبوا من يحبهم ويخلصوا لمن يخلص لهم ..

وما ان بدأت السيارة تتحرك ، حتى تعالت صيحات الاهالى قائلين : « كواهيرى .. كواهيرى ! » .. مع السلامة ، مع السلامة .. وراحوا يجرون خلف السيارة ، بل يندفعون امامها ويتساقطون على جانبيها .. بل انهم ظلوا يجرون خلفها ، ويلوحون بأيديهم ، حتى حين ابتعدت مغادرة القرية .

وأشعل بول سيجارة بيد مرتعشة ، بينما كانت راشيل تقود السيارة واجمة ، وقد حاولا أن يتكلما ، ولكنهما كانا مشتتى الفكر ، فلم يتبادلا الا كلمات متقطعة ..

كان يقول لها : « سأرسل اليك خطابا من ستانلى فيل » ، فتقول له : « حسنا . وأنا سأكتب اليك بمجرد أن أعرف عنوانك » .. ثم لا يلبث أن يقول لها : « اكتبى على العنوان الذى أعطيتك اياه فى انجلترا . لاتنسى ! » . فتقول هامسة : « نعم . لن أنسى » .

وأخيرا ، وصلا الى (روجيرى) . ومرقت السيارة بين معالم البلدة حتى بلغت منزل الحاكم ، وهناك أوقفت العربة . وما لبث أن ظهر لوكومت وحيا بول التحية العسكرية ، كأنهما جنديان فى الميدان ، فرد بول التحية بمثلها . ثم انحنى لوكومت لراشيل ، وهو لا يزال ملتزما الطابع العسكرى .. والتفت الى بول قائلا : « ان السيارة فى الانتظار ! » . فصمت بول . وكان فى تلك اللحظة شاحب الوجه .

وابتعد لوكومت ليتم ترتيبات الرحيل ، فاقترب بول من راشيل ، وأخذها بين ذراعيه ، وضغط بشفتيه شفتيها ، كأنه يقبلها لأول مرة . ووقفا هكذا متعانقين تحت المطر المنهمر ، ثم انفصل عنها وقد ازداد امتقاعا ..

وشخصت اليه وهو يدخل فى السـيارة الحكومية ، ثم تنطلق السـيارة به ، وهو جالس بلا حـراك . وما لبثت السيارة أن أختفت عند منعطف الطريق .. وراشيل واقفة هناك .

وما لبثت أن سمعت صـوت لوكومت يقول لها ، وهو يلمس كتفها فى عطف : « تشجعى ياراشيل . تجلدى ! » .. فنظرت اليه نظرة جوفاء ثم اندفعت الى سيارتها وانطلقت بها . وبعد أن تجاوزت حدود (روجيرى) ، أوقفت السيارة ، ثم غطت وجهها بيديها وراح جسدها يهتز أهتزازا شديدا وهى تجهش بالبكاء ..

وأخيرا رفعت رأسها ونظرت أمامها نحو السهل المنبسط .. وكان المطر ينهمر مدرارا .. وراحت تقول لنفسها انها يجب أن تعيش .. لقد ذهب ، ولكنه لم يأخذ معه ذلك الشىء الذى لو قدر له أن يعرف بوجوده لأصر على أن يأخذه معه .. فقد كانت تحمل فى أحشائها جزءا منه .. تحمل طفلهما !

القسم الثالث

- ٢٠ -

• **ذات** يوم من شهر فبراير ، وقد خف هطول الامطار ، طلبت « راشيل » من « وانجا » أن يأخذها بالسيارة الى روجيرى .. وجلست بجانبه طوال الطريق صامتة ، وهى تتذكر آخر مرة قطعت فيها هذا الطريق مع بول قبل شهر ، **ووحدتها بعد رحيله ، وعذاب الحرمان من رغبتها التى استيقظت متأخرة ، ولكنها غدت عارمة ، لا تهدأ ، تريد أن ترتوى .. وهى لا تفتأ تتساءل فى نفسها : متى ينتهى هذا العذاب ؟**

وفى روجيرى ، ذهبت الى منزل الحاكم ، فقيل لها انه فى المحكمة . ولكن لوكومت كان قد رآها من هناك ، فرفع الجلسة ، وأسرع اليها بخطى واسعة ، صائحا : «راشيل !» واخذ يديها فى يديه ، وراح يتفرس فيها متسائلا ، ثم قال لها : « ان عندى خطابات لك » . واخذها الى الداخل . حتى اذا ناولها الخطابات ، ألقت عليها نظرة سريعة ، ثم بدت عليها خيبة الامل . وابتسمت فى مرارة قائلة : « لاشىء منه ! » .

ـ ألم يكتب لك منذ ان ذهب ؟

ـ نعم . لقد تلقيت منه خطابا طويلا حين كان فى ستانلى فيل .

وتلفتت حواليها قائلة : « هل يمكننى ان أتحدث معك على انفراد ؟ » ، فقال : « بالتأكيد » .. وقام فأغلق الباب ، وأشار الى مقعد ، فجلست . ونظرت اليه نظرة ثابتة ، وهى تقول : **« هنرى .. أنا حامل ! »**

وأجفل مأخوذا ، ثم تمالك نفسه ، وصمت قليلا . وما لبث أن قال : « وهل هو يعلم ؟ » .. قالت : « كلا . لم أقل

له » . فقال فى دهشة : « لم تقولى له ؟! »

ـ لم أكن أريد أن يعرف ، والا لأصر على أن يأخذ الطفل منى .. وكانت الكلمة التى أخشاها هى الاجهاض ، فلم أكن لأستطيع احتمال ذلك منه لو أنه اقترحه .. كان من شأن ذلك أن يقتل كل شىء بيننا !

ـ أولم تقترحى عليه الزواج ؟

ـ طبعا لا .. لأن الموقف كان سيغدو مستحيلا .. ولو أنه كان مقدرا له أن يتزوجنى ، لكان لزاما أن ينبنى ذلك على رغبة منه فى أن يتزوجنى ، وليس بسبب أننى حامل !

ـ ولكن عليك أن تفكرى فى نفسك ياراشيل .. فى مستقبلك .. فى ..

ـ وهل تعتقد اننى لم أفكر فى ذلك كله ؟ لقد قتلت كل ذلك تفكيرا طوال الشهر الماضى .

ـ اذن فقد قررت أن تحتفظى بالطفل ؟ .. اذا كان الأمر كذلك فسوف أساعدك .. هنـــاك مكان أعرفه بالقرب من بوكوفو ، سأرسلك اليه حتى يحين الوقت .. انه مستشفى تديره بعض الراهبات الطيبات ، وقد عالجن حالات أسوأ من حالتك ، وستحتفظين بالطفــــل ، وان كان سينشأ كاثوليكيا . وأما أنت فتعودين الى دايبيلا . سأدبر كل شىء .

ـ كلا . لا أريد أن ينشأ الطفل بعيدا عنى .

فقال فى دهشة : « اذن ماذا تريدين ياراشيل ؟ »

ـ أريد أن يظــل طفلى معى فى دايبيلا .. حيث أحوطه بعنايتى .

ـ حسنا . اننى واثق ياراشيل من قـــدرتك على ذلك ، ولكن ماذا بعد ؟ .. ماذا سيكون موقفك أمام الارسالية ؟

ـ لقد فكرت فى ذلك .. فماذا تقترح ؟

***

وظل صامتا برهة طويلة ، ثم قام فجأة ، واتجه الى أحد الادراج ، وأخرج ورقة طويلة مطبوعة ، جاء بها وهو يقول : « ما دام الامر كذلك ، فأننى سأقوم باجراء يحل الاشكال . هذا عقد زواج رسمى .. **سأزعم اننى قدت بعقد قران الكابتن بول ويلتون ، من السلاح الجوى البريطانى ، على الآنسة راشيل كيد فى دايبيلا ، بتاريخ .. »**

وأملته تاريخا منذعشرة أسابيع مضت . فقال : « والآن ، نحن فى حاجة الى شاهدين .. » . فقالت : « عندى كولو و .. » فقاطعها قائلا وهو يهز رأسه : **« كلا . انك تنسين أن كولو غير ذى وجود قانونى . ليست له شخصية تؤهله لتوقيع أية أوراق رسمية .. انه أفريقى .. بينما نحن فى حاجة الى شاهدين من البيض ! »**

وصمت هنيهة ، ثم رفع رأسه فجأة وهو يقول : « مساعدى فرانسوا وزوجتى » . قالت : « زوجتك ؟ الا يحسن الا تعلم زوجتك بهذا الامر ؟ .. اننى أفضل الاب جيلو » .

ــ كلا ، انه لا يستطيع .. لا يقبل أن يرتكب تزويرا .. كلا ياراشيل . ليس هناك غير زوجتى . انها فى الامور الصغيرة امرأة غبية ، ولكنها فى الامور الخطيرة ــ كهذا الامر ــ سريعة الفهم .. ستوقع ، ثم تذهب بعد ذلك الى الاب جيلو لتعترف أمامه . ولن يعلم بالامر غيرى وغيرها . وغير الاب جيلو .. أما فرانسوا فلن يعلم بشىء .. انها ورقة سوف أصدر أمرى اليه بتوقيعها ، فيمتثل للامر دون أن يعرف ما بها !

ــ ولكن العقد يجب أن يسجل فى ستانلى فيل ، أو فى أى مكان آخر .

ــ كلا . لقد عملت حساب ذلك . فلن أحرر من العقد الا

صورة واحدة ، هى التى ستكون تحت يدك . أما الصورة الأخرى فالمفروض انها ضائعة بين الأضابير الرسمية ..

ان النسخة التى ستأخذينها ليست لمصلحة أحد سوى الطفل وحده ، لكى يصحح نسبه ، وينسب الى أبيه الحقيقى .. ولتكون سندا لك أمام الارسالية .. وأمام أهالى دايبيلا !

وعندئذ لمست ركبته وهى تبتسم قائلة : « هنرى ، انك لطيف جدا .. واننى أشكرك » . فقال : « لا تشكرينى .. ما دام الموقف هكذا ، وقد اخترت أن تعالجيه بهذه الطريقة ، فاننى أجد سعادة فى أن أعاونك على مواجهته » .. ثم صاح قائلا : « فرانسوا ! »

ففتح فرانسوا الباب ، ودخل على أطراف أصابعه باسما ، فقال له : « وقع هذه الورقة .. هنا » . فبدأ فرانسوا يبسط الورقة التى قدمها له مطوية ، فصاح لوكومت فيه : « وقعها أيها الاحمق .. فأنا لم أقل لك أن تقرأها » . فقال متلعثما : « سمعا ياكولونيل » .

ووقع الورقة وانصرف ، فقال لوكومت : « كل مابقى بعد ذلك ، أن أخطر الارسالية بأنك تزوجت منذ بضعة أسابيع » . فنظرت راشيل الى الارض قائلة : « لقد كتبت الى صديقة لى هناك بذلك منذ ثلاثة أسابيع » . وحين رفعت رأسها ، رأت لوكومت ينظر اليها مبتسما .

- ٢١ -

• **عندما** خرجت السيارة براشيل من روجيرى ، طلبت من وانجا أن يتجه الى ارسالية الأب جيلو .. وكانت تخشى أن تقابله ، ولكنها أحست بأن مقابلته أصبحت واجبا عليها .. كان لزاما أن تقول له .. أن تعترف له ، كما لو كانت من أتباع كنيسته .. **وكان مقدرا له أن يعلم — على أية**

حال - من هارى لوكومت ، أو حين يزورها فى دايبيلا ويلاحظ ارتفاع بطنها ، لذلك كان من الأفضل أن يعلم منها هى ذاتها .. الآن .

وما أن انطلقت السيارة فى الطريق الموحل ، حتى بدأ المطر يهطل من جديد .. وراحت هى تلقى نظرة على الرسائل التى تسلمتها من اوكومت .. كانت بينهـا رسالة من الدكتور سبنسر ، وقد كانت رسالة رقيقة .. ولكنهـا لم تكد تقرأ بضعة أسطر منها ، حتى شعرت بقلبها يغوص بين جنبيها .. كان الدكتور سبنسر يقول لها : « لايبدو يا راشيل أنهم سيسمحون لى بالعودة - على الأقل لوقت طويل - بسبب كبدى التى لا تشغلنى ، ولكنها تشـغل الأطباء الذين فحصونى .. »

هاهو ذا صديق آخر تفقده ، فى الوقت الذى كانت فيـه محتاجة لكل صديق .

وكان ثمـة خطاب آخر من صـديقتها بمركز الارسالية ، « اديث بارنى » . وقد بدأت خطابها بالتهانى .. اذن فقد تلقت خطابها ، وانطلت عليها الأكذوبة .. وكانت تقول لها : « ياله من أمر رائع يا راشيل ، أن تظفرى لا بدكتور فحسب، وإنما بزوج كذلك .. بيد انه من المؤسف انكما لن تستطيعا العمل معـا مدة طويلة .. ولـكن الزمن سيمر بسرعة ، وتنتهى هذه الحرب ، وعندئذ سيعفى زوجك من الخـدمة ويعود اليك » .

وراحت السطور تتراقص أمام عينيها ، وهى تقرأ بعـد ذلك : « .. لقد دفعت الغيرة بالدكتور رالف لأن يتصرف تصرفا مشـينا . فما أن سـمع أنك تزوجت ، وأن زوجك سيعود الى الحرب ، حتى طلب الى المستر بروسر أن يرسل سبيسا ليعمل فى دايبيلا ، كما لو أنك كنت فى حاجة الى

واعظ !.. وعلى ذلك ؛ فقد تقرر ارسال القس المسمى كاليب آلدريتش خلال بضعة أسابيع .. وكاليب موجود فى افريقيا منذ عامين ، وهو مصاب بحالة شديدة من الملاريا لا تفتأ تعاوده بين الحين والحين . وقدأرسلوه الى هنافى المستشفى ليستريح قبل أن يذهب الى دايبيلا » .

وودت راشيل لو تطلق ضحكة هستيرية ، ولكنها تمالكت نفسها ، وفضت خطابا آخر ، فاذا هو من رالف يخطرها فيه ـ بجفاف ـ بأن القس الموقر كاليب آلدريتش قادم الى (دايبيلا) .

وما لبث وانجا أن أوقف السيارة أمام بناء مسقوف بالقش ، يعلوه الصليب . وقال لها : « ها قد وصلنا يا مدام » .

ولمح الأب جيلو السيارة ، فأقبل مهرولا نحوها ؛ وقد رفع فوق رأسه مظلة كبيرة يتقى بها وابل المطر . ومد يده الى راشيل ، وقادها ـ تحت المظلة ـ الى كوخه الصغير ، الذى لم يكن به سوى مقعدين وتمثال للمسيح المصلوب على الحائط . وأجلسها هناك ، وأسرع فجاء لها بقدح من الشاى ، ثم جلس قبالتها . فقالت له : « لقد جئت أيها الأب جيلو لأقول لك شيئا ستعتبره خطيئة مميتة ! »

وقصت عليه قصتها فى صراحة تامة . حتى اذا انتهت من سردها ، صمت صمتا طويلا ، ثم قال : « لو أن فى سلطتى أن أغفر لك ، لفعلت .. فاننى أرى كيف بدأ الأمر ، وكيف أدت كل خطوة الى الخطوة التالية ، وقد كانت نواياك على الدوام طيبة » .

ـ ولكن النتائج كانت سيئة .. هل تؤمن باللعنة التى يتحدثون عنها هنا أيها الأب جيلو ؟

ـ اللعنة ؟.. بالطبع لا أؤمن باللعنة .. اننى أؤمن بالله

وحده ؛ فهل تتصورين أن هذا الذى حدث لك من فعل اللعنة ؟.. كلا . ان الأمر ـ كما صورته لى ـ لا يعدو أن يكون نتيجة طبيعية للظروف التى أحاطت بك .

وشعرت ببعض الراحة حين خرجت من عنده . فقدكان رجلا نبيلا ، كبير القلب .

***

وانقضى شهران .. واستيقظت ـ ذات صباح ـ وهى تشعر بوعكة . وكانت أشعة الشمس قد تسللت الى غرفة نومها منذ وقت طويل ، ومع ذلك ظلت راقدة فى فراشها ، تنظر الى بطنها المرتفع تحت الغطاء ، وتحس بالحمى تلهب جسمها .. وتبادر الى ذهنها أن الملاريا القديمة قد تكون عاودتها .. ولقد مر بها حين من الزمن ، لم تكن تخشى فيه المرض . أما الآن فقد أصبحت تخشاه من أجل الجنين الذى في أحشائها .

وما لبثت أن سمعت صوت كولو يقول لها بصوت رقيق من الخارج : « يا مدام ! » . فقالت له : « أدخل يا كولو ! » . ودخل على أطراف أصابعه ووقف الى جانب فراشها فى ادب ، وقد غض من بصره ، ثم قال : « ان المدام تشعر بالصغير فى أحشائها » .

ـ نعم يا كولو ، انه ذلك الصغير فى أحشائى .

ـ جئت يا مدام لأقول لك أن الرئيس بودرجا قد جاء الى المستشفى مع صغرى زوجاته ، وهو يكاد يرقص من الفرح ، لأنه يعتقد أن زوجته ستلد ولدا .. وهو يقول أنهما لن يغادرا المستشفى حتى تأتى وتريها !

فابتسمت ، ونهضت على مرفقها قائلة : « سأجىء حالا الى المستشفى يا كولو » . ثم راحت تحاول بصعوبة أن

تجلس .. وما لبثت أن غادرت الفراش ، وارتدت ملابسها ، وسارت نحو المستشفى ببطء ، وقد أحست برأسها يدور .. حتى اذا بلغت منتصف الطريق ، سمعت ضرب الطبول يدوى فى الوادى .. ولكنها واصلت السير ..

وخيل اليهـا أن القرية كلها اجتمعت حول المستشفى ، وقـد راح الأهالى يتناقشون معا ، غير مصدقين أن تكون صغرى زوجات بودرجا حاملا .. فما رأوا راشيل حتى راحوا يهللون ويفسحون لها طريقا بينهم ، قائلين : « انهـا معجزة يا مدام .. انها أعجوبة يا مدام ! »

وفى داخل المستشفى ، اندفع نحوها بودرجا وأربع نساء من أقاربه ، وهم يتكلمون فى وقت واحد . وكانت زوجتـه الصـغرى « بينا » جالسة بينهم فأخرجت « راشـيل » الجميع ، وراحت تفحصها .. وما لبثت أن أنبأت زوجهـا بأنها حامل ، فكاد يجن من الفرح ..

وفى هـذه اللحظة جاء كولو يقول : « ثمـة برقية عاجلة يا مدام .. هل أسمح لضارب الطبول بالدخول ؟ » . فقالت فى نفسها وقد تملكها الانفعال : « برقية ؟.. قد تكون من بول ! » . واندفعت الى الباب وفتحته فى حركةهستيرية ..

ولكن ضارب الطبول قال لها : « هناك رجل أبيض ، قادم للعمل فى دايبيلا ، وقد توقف بسيارته عند كالينا ، ولا يريد أن يتحرك من هناك » . فتطلعت الى ضارب الطبول قائلة فى ذهول : « ليس بول ؟ أما من كلمة من بول ؟ » .. وفاضت الدموع من عينيها ، وارتمت على أحـد المقاعد ، ثم راحت تبكى بصوت مرتفع .. ولم تكترث بأحد .. كانت تعرف أنهم ينظرون اليها فى دهشة ولكنها لم تكترث !

***

لابد أن القـادم الأبيض هو الواعظ .. لابد انه « كاليب آلدريتشن » .. وقـد بلغ (كالينا) ، على بعـد اثنى عشر كيلو مترا فى الطريق من روجيرى . ولكنه رفض أن يتقدم . لماذا ؟.. ان البرقية لم توضح لذلك سببا ، فماذا عساها فاعلة بشأنه ؟

قال كولو : « سآخذ السيارة الى كالينا يا مدام ، واطلب الى الرجل الأبيض أن يعود الى حيث كان .. فلسنافى حاجة اليه هنا » . فنهضت على قدميها قائلة : « كلا . سنذهب معا . فاطلب الى وانجا أن يأتى بالسيارة » .

وفى الطريق سألها كولو : « هل الدكتور الأبيض يعرف القادم الجديد يا مدام ؟ » ، فأجابت : « كلا يا كولو » .

ــ اذن لايمكن أن يكونا أخوين فى الختان .

ــ كلا يا كولو .. انهما بالطبع ليسا أخوين فى الختان .

وأدركت أنه كان يسأل عما اذا كان يحق للرجل الأبيض الجديد أن ينام مع المدام . فقد كان من المسموح به للرجل ــ فى تقاليدهم ــ أن ينام مع زوجة أخيه فى الختان .

وما لبث وانجا أن قال : « أنظرى يا مدام ! » . وكانت السيارة قد بلغت أكواخ قرية (كالينا) ، وقد لاح لهم ــ على بعد ــ كثير من الأهالى متجمعين فى الطريق حول سيارة واقفة هناك . فطلبت الى وانجا أن يتوقف ، ثم أشارت الى رجل يقف أمام كوخه ، وسألته قائلة : « ماذا يحدث هناك ؟ » . فتألقت أسنان الرجل وهو يبتسم لها قائلا : « ان هنـاك رجلا أبيض لايريد أن يترك سيارته ، وقد توقفت به هناك مساء أمس ، حين أقبل الظلام . وقد طلبنا اليه أن يجىء ليبيت فى القرية ، ولكنه رفض ، وبقى فى سيارته .. وفى أثناء الليل اقترب منه جماعة من قريتنا ، وقلدوا صوت

الأسد ، فصرخ الرجل فى رعب .. انه مصاب بمرض الخوف يا مدام ! »

فقالت فى نفسهـــا : « ياله من احمق .. غبى ! » . ثم التفتت الى الرجل قائلة فى حدة : « لقدكان من الخطأالجسيم معاملة الرجل الأبيض بهذا الشكل » . ثم قالت لوانجا : « فلنذهب اليه ! »

واذ اقتربا من السـيارة « الشميفروليه » ، رات راسه يرتفع قليلا فى المقعد الخلفى ، وقد تجمع أهالى (كالينا) حواليه ، ينظرون اليه ويضحكون .. لقد طلع النهار وهو بعد يخشى أن يغادر سيارته .. ياله من جبان !

وتقدمت نحو السيارة ، وفتحت بابها . وكان « كاليب آلدريتش » مستلقيا فى المقعد الخلفى ، وقد نضح قميصه الكاكى بسيل من العرق .. وكان طويلا جدا ، ونحيفا جدا .. وكان وجهه مستطيلا وجميلا ، وشعره الفاحم يتدلى على جبهته . وقد بدت عيناه الزرقاوان شديدتى الصفاء ، فى وجهه غير الحليق ، المصطبغ بصفرة طاغية .

وتطلع اليها فى دهشة قائلا : « لابد أنك راشيل » . ثم تدارك قائلا : « أعنى مس كيد ، ولكنهم يقولون راشـــيل حين يتحدثون عنك هناك .. آسف ، لايمكننى أن أتذكر اسم زوجك .. مسز ويلتون ، أليس كذلك ؟ » . فقالت بحدة : « أفضل أن تدعونى راشيل » ثم أردفت : « يجب أن أقول لك انك بدأت بداية سيئة بالنسبة للأهالى هنا ، اذ بقيت فى سيارتك طوال الليل » .

ـــ أوه .. لقد عرضوا على المبيت . وكنت أود أن أقضى الليل عندهم ، ولكن حيوانا ما كان يحوم هنا ، وأظنه أسدا .. فكدت أموت من الهلع !

ـ ان الذى سمعته كان صوت جماعة من المازحين فى (كاالينا) .

فتلفت حواليه مضطربا ، وقال : « اذن ، فقد كان أولئك جميعا يسخرون منى ؟ » . فصاحت فى حنق : « لماذا توقفت هنا على أية حال ؟ .. هل أصيبت سيارتك بخلل ؟ » . فاعتدل فى جلسته قائلا : « كلا . ليست السيارة هى التى اصيبت .. بل أنا ! » . **فحدقت فيه قائلة : « ماذا تعنى أيها المبجل آلدرينتش ؟ » . فابتسم ابتسامة خفيفة ، وهو يقول : « أرجو ألا تلقبينى بالمبجل . ان الطريقة التى تقولينها بها تقطر سخرية .. ان ما أعنيه .. »** ثم توقف ، وحاول أن يخرج قدمه من السيارة وأن ينتصب ، ولكن ركبتيه تخاذلتا ، وكاد أن يسقط لولا أن أسندته صائحة :

ـ انك مريض .. لماذا لم تقل ذلك ؟

ـ لم أكن أعلم أن هذه الملاريا ستعاودنى .. أنا آسف .. آسف جدا !

ـ أنا الآسفة .. لم أكن أعلم أنك مريض .

والتفتت الى الأهالى قائلة : « ان السيد الأبيض لم يكن خائفا ، فهو رجل شجاع .. ولكنه أصيب بمرض مفاجىء » .

***

ولفوه فى غطاء ، وأجلسوه فى المقعد الخلفى للسيارة . فقبع هناك مغمض العينين وقد أطبق فكيه بشدة ، وراح يبذل مجهودا عنيفا كى لا يرتجف . حتى اذا بلغوا المستشفى ، أرقدوه على أحد الأسرة . وكان لا يفتأ ينتفض انتفاضا شديدا ، وهو يتمتم قائلا : « آسف .. آسف ! » .. وهى جالسة بجواره ، تقول : « لا داعى للأسف . وسوف ينتهى كل شىء على خير » .

وحين اقترب المساء ، استولى النعاس على « كاليب » ، فانسحبت « راشيل » فى هدوء وذهبت الى المنزل ، حيث ارتمت على الفراش ، وقد أمسكت رأسها بيديها ، وراحت تحملق فى السقف .. كانت تشعر بصداع فظيع يكاد يحطم رأسها ، وقد أحاطت بها المتاعب من كل جانب .. انهـــا اللعنة ولاشك تفعل فعلها !

واذ واتاها النعاس أخيرا ، انتابتهـــا الأحلام المروعة . فتراءى لها شخص يقترب فى الظلام ، وفى يده رمح طويل ذو بريق ، فصرخت وفتحت عينيها .. ورأت كولو يقف بجانب الفراش وهو يرفع مصـــباحا فى يده ، وكوزونجو وموزينجا يتطلعان اليها . وقال لها كولو فى انزعاج غريب : « هل انت مريضة يا مدام ؟ » . فأجابت : « كلا يا كولو . أننى بخير » .

ــ ان السيد الأبيض الجديد مريض جدا يا مدام . ان جسده يشتعل بالنار ، وهويرسل باستمرار صيحات مروعة.

فتحاملت على نفسها ، ونزلت فى الظلام ، وكولو خلفهـــا يحمل مشـــعلا .. حتى اذا دخلت المستشفى ، سمعت « كاليب » يهذى ويكلم أشخاصا يتخيلهم أمامه . فاقتربت منه ، ووضعت يدها على جبينه الملتهب ، فحملق فيهـــا صـــائحا : « نانسى . نانسى .. أحبك يا نانسى ! » . ثم فاضت عيناه بالدموع وهو يردد : « أحبك كثيرا يا نانسى .. لاتتركينى ، بربك لاتتركينى ! »

فانهمرت الدموع من عينيها ، وجلست على مقعد بجانب سريره ، وقد استبدت بها الحيرة .. فما كان بوسعها أن تفعل شيئا من أجله .. لم يكن لديها أى دواء لمرضه الا « الكينين » ، ولم تكن تجرؤ على أن تعطيه مزيدا منه ، فغمست خرقة فى الماء البارد ، وراحت تمررها على جبهته..

وعندئذ تطلع اليها قائلا : « آسف . آسف جدا لأننى أتعبتك يا نانسى ! »

وسهرت بجانبه طول الليل ، حتى اذا اقترب الصباح ، أغفت قليلا ، ثم تنبهت بعد حين ، فرأته يبتسم لها ، وقد بادرها قائلا : « أشكرك يا راشيل . فقد تعبت كثيرا من أجلى » .

ـ أعتقد أنك الآن احسن حالا ، أيها القس كاليب .

ـ أرجو أن تنادينى « كاليب » .. بغير القاب .

ـ حسنا يا كاليب ..

فصمت قليلا ثم قال : « ثمة شىء أعرفه دون أن يقول لى أحد عنه يا راشيل .. فلابد أنك استأت كثيرا اذ كنت فى حاجة ملحة هنا الى طبيب ، فاذا الذى يأتيك قسيس ! » ..

وادارت رأسها بسرعة ، ونظرت اليه ، فاستطرد قائلا : **« وددت لو كنت طبيبا يا راشيل .. ولكننى تعديت الآن السن التى يمكن لى فيها أن أعاود الدراسة لأغدو طبيبا .. فقد بلغت السابعة والثلاثين .. واذن فلا مناص لى من ان أبقى قسيسا ، وهو أمر يصدمنى كما يصدمك على السواء!..** ولكننى سأحاول أن أكون معلما ناجحا ؛ وأن أساعدك هنا فى المستشفى بقدر ما أستطيع .. وكونى واثقة يا راشيل من أننى لست الرئيس هنا ، الا بالاسم .. فامضى فى حياتك مثلما كنت تفعلين ، دون أى تغيير .. ان دابيلا هى مملكتك ! »

وابتسم لها ، فقالت : « أنا فاهمة يا كاليب ، ومقدرة ، وواثقة من أننا سنشترك معا فى كل شىء » .

***

وفى الأسبوع التالى ، ساءت صحة راشيل الى درجة

مزعجة ، حتى ان موزينجا كان يرقبها بفرح ، اذ كان واثقا من أن اللعنة التى حلت عليها تفعل فعلها ، وان تلبث أن تموت ، ويعود هو الى مكانته الأولى باعتباره الدكتورموزينجا، ويصبح هو الرئيس فى المستشفى . بيد أن كولو كان يرقب تدهور صحتها فى جزع شديد ، وقد أفضى بذلك الى السيد الأبيض الذى كان يبل من مرضه ، بعد أن قضى أسبوعا يلازم الفراش .. فما حضرت الى المستشفى ، حتى بادرها هذا قائلا : « هل لى أن أتحدث اليك يا راشيل ؟ »

وجلست بجانبه ، وتطلعت اليه متسائلة ، فقال لها : **« كنت أتحدث الآن مع كولو ، وقد أخبرنى بتلك اللعنة التى صبها أحد الاهالى عليك .. وهو قلق لانه يرى حالتك تزداد سوءا .. فهل تؤمنين بهذه اللعنة يا راشيل ؟ »**

ــ كلا بالطبع لا اؤمن بها .

ــ سواء أكنت تؤمنين أو لا تؤمنين بها ، فلاشك عندى أن صحتك قد ساءت لأنك ترهقين نفسك فى العمل ، بينما أنت حامل .. أليس كذلك ؟

ولم تجبه ، وقد خطر لها ــ فى هذه اللحظة ــ أن تعترف له بكل شيء .. كان يعرف انها حامل ، وأنها متزوجة .. وقد سئمت الاستمرار فى هذه الأكذوبة التى تعيش فيها .. ولكنها غيرت موضوع الحديث قائلة : « هل أنت متزوج يا كاليب ؟ »

ــ كلا . كنت متزوجا ، وقد ماتت زوجتى منذ ثلاث سنوات . كان اسمها نانسى ، وقد ماتت ..

ــ ٢٢ ــ

• **جين** تم شفاء كاليب ، غادر المستشفى وأقام فى الكوخ الذى كان يقيم فيه بول . وقد شغل نفسه بتعليم الأهالى

.. وكان معلما ممتازا . وكان الأهالى يأتون فى اشتياق للاستماع اليه .

وازداد عدد تلاميذه زيادة كبيرة ، فكان لا يفتأ يغذيهم بالمعلومات ، ويوسع أفق مداركهم .. بل لقد كان يعرض عليهم القضايا الكبرى التى يدور حولها الحديث فى العالم ..

كان يقول لهم مثلا أن الافريقيين اخوة أحرار ، ولكن حكامهم لا يرعون الا مصالحهم الخاصة ، وأن ثمة حكاما من البيض فى بعض أنحاء افريقيا يضطهدون الافريقيين ويذيقونهم كل صنوف العذاب والهوان .. كما أن ثمة حكاما من الافريقيين أنفسهم يسيئون معاملة اخوانهم لأنهم انتهازيون لا اخلاق لهم .

كان يقول لهم أن الشىء الوحيد الذى يجب أن يقود الجميع ويوجه سلوكهم ، هو الضمير . فلو ساد الضمير افريقيا ، لتمتعت بالحرية والسعادة والعدل .

كان معلما عظيما ، وكان يتقن وسائل التحبيب الى القراءة والكتابة ، كما انه كان يقيم الصلاة فى يوم الأحد ، ويساعد فى المستشفى .

أما « راشيل » ، فقد كان الجنين ينمو فى بطنها ، ولكنها كانت تزاول عملها فى المستشفى بانتظام .. حتى حدث ذات مساء — وكان المطر ينهمر — أن اتجهت الى المستشفى بخطوات بطيئة ، وقد حملت فى يدها حقيبة صغيرة ، وتبعها كولو .. وفى الطريق ، أدارت وجهها نحوه ، فرآه شديد الامتقاع ، فابتسم لها قائلا : « هل حان الوقت يا مدام ؟ » . قالت : « أعتقد ذلك يا كولو » .

ورقدت فى غرفة الجراحة . ووقف مزيمبا عند الباب ليحول دون دخول الفضوليين . وبدأ جوتا يضع على النار كميات كبيرة من الماء ، وجرى موزينجا وسط القرى صائحا: « ان المدام ستضع طفلا » .

وما لبث كاليب أن جاء يجرى ، وقد نسى معطف المطر . ودخل مهرولا يصيح : « أين هى ؟.. أين هى ؟ » .. ثم اندفع الى غرفة الجراحة ، وركع بجانب « راشيل » ، وأخذ يدها بين يديه .. وكان وجهه مبللا بماء المطر ، ولكن «كولو» لمح دموعا ــ كذلك ــ تسيل من عينيه . وقد رأت «راشيل» دموعه ، فتطلعت اليـــه فى دهشة . ثم لم تلبث الآلام أن انتابتها ، فطلبت اليه أن يخرج .

وتقاطر الأهالى على المستشفى يتقدمهم الرئيس بودرجا. ثم جاء ضارب الطبول ، وكان الحاكم الأبيض قد أمره بأن يرسل اشارة بمجرد أن يقترب ميعاد الوضع ، ولكن المدام أمرته الا يرســل أية اشارة حتى تطلب هى اليــه ذلك .. فجلس ينتظر .

ومكث كاليب خـــارج غرفة الجراحـــة يدخن غليونه فى شراهة ، وهو شديد التوتر والاضطراب .

واشتد الظلام ، واستمر المطر ينهمر انهمارا عنيفا ، وكان الجميع ينتظرون . وقد تواترت صرخات المدام ، وازداد وجهها امتقاعا ، وراح العرق يسيل على جســدها .. ثم صرخت فجأة صرخة نافذة ، فاندفع نحوها كولو ، وقد كان يعرف ما ينبغى أن يفعل . وسرعان ما كان الطفل بين يديه ، وقد بدأ يصرخ . فناوله الى كوزونجو ، واندفع الى الباب ، وقال لضارب الطبول : « لقد انجبت المدام ولدا » .

***

فى مساء يوم ــ بعد ستة أشهر ــ كان كاليب يجلس تحت شجرة « الليمبالى » ، وعنـــد قدميه كلب ــ كان قد عطف عليه واقتناه وسماه « جوب » ــ وبين يديه الكتاب المقدس يقرأ فيه .. ووجد نفسه ــ فجأة ــ يفكر فى راشيل .. كان

لا ينفك يفكر فيها ، ثم لا تلبث أن تصدمه هـذه الحقيقة : **انها متزوجة وأم لطفل .**

وفجأة ، سمع صوت الطفل يبكى فى المنزل ، فنهض واقفا ، وأسرع يرتقى السلم ، وهو لا يدرى لماذا كان يفعل ذلك .. كل ماكان يدريه أنه أراد أن يراها .

وقد كانت ــ حين دخل ــ ترضع الطفل . وهى حانية عليه تبتسم فى وجهه . بينما كان يلتهم ثديها البض الممتلىء .. فقال فى نفسه : ((لاينبغى أن أكون هنا)) . وتوقف ليعود أدراجه ، ولكنها ــ فى هذه اللحظة ــ تنبهت لوجوده ، فالتفتت ناحيته وابتسمت له قائلة : ((هاللو)) ، فارتمى على أحد المقاعد وهو يقول : ((مساء الخير يا راشيل)) ..

وخجلت من نهدها العارى ، فوارته فى قميصها ، وارقدت الطفل فى فراشه ، فراح الصغير يحدق فى كاليب بعينيه الواسعتين . فقام هذا وهو يقول : ((دعينى أحمله .. لحظة قصيرة !)) . ثم أخذ يهدهده ويداعبه . وما لبث أن قال لها وهو ينظر اليه : ((ماذا تعدين لمستقبله ياترى ؟.. هل تريدينه أن يبقى فى افريقيا ؟))

ــ نعم . سيبقى معى فى افريقيا .

ــ اذن أنت تزمعين البقاء هنا ؟

واذ أجابته : ((بالتأكيد)) ، سألها : ((وهل تتوقعين أن يوافيك الدكتور ويلتون هنا ؟))

ــ لا أعرف ما يريد أن يفعله بعد الحرب .. ولكننى أعرف ما أريده أنا .

فصمت طويلا ، ثم قال : ((واضح أنك قد كرست نفسك للخدمة فى دايبيلا ، ولكن ما الذى يمكن عمله فى دايبيلا الآن ؟.. اننا فى حاجة الى دكتور ، ولكن هذا لن يتسنى تحقيقه ، مادامت هذه الحرب ناشبة .. أما التعليم ، ففى

امكاننا أن نعلم كثيرا من الناس هنا ، ولكن ماذابعدذلك ؟.. هل أعددنا للافريقيين المتعلمين الظروف الاجتماعية التى تناسب تعليمهم ؟.. اننى أخشى أن نقود الناس هنا الى البلبلة والشعور بالظلم ، بما نزودهم به من علم .. **أخشى على هذه القارة التى يسمونها بالقارة السوداء ، أن تصطبغ بلون الدماء ! .. فماذا نفعل كى نحول دون ذلك ؟ .. هل ننسحب وقد قطعنا فى هذه البلاد شوطا طويلا ؟.. اننا ـ حتى اذا انسحبنا ـ لن نترك خلفنا هنا سوى الجهل والجوع والمرض.. فهل نبقى اذن ؟ وماذا نفعل اذا بقينا ؟ »**

ـ لم يخطر لى أن ادرس عواقب المدنية فى هذه البلاد ، بهذه الطريقة .. انك لتجعلنى أفكر فى أمور لم أفكر فيها قط من قبل . لابد أنك فكرت فى ذلك طويلا !

ـ لقد كنت أجلس هنا ، تحت شجرة الليمبالى ، لأفكر فى هذه الأمور .. وقد انتهيت الى أننا من العبث أن نستنفد كل جهدنا فى علاج هؤلاء القوم وتعليمهم وتدريبهم على المظاهر الشكلية لعبادة الله ، بل يجب أن نوجه الجانب الأكبر من اهتمامنا ، الى توفير الرفاهية الاقتصادية أولا لأهالى هذه البلاد ، حتى ندفع بهم فى طريق المدنية والرقى .. ان الناس هنا يشكون من أن الصيد يقل شيئا فشيئا ، فماذا نفعل كى نجعلهم يستفيضون عن الصيد ؟.. هذا هو الذى ينبغى أن نفكر فيه .

ـ انك رائع يا كاليب !

قالت ذلك وهى تنظر اليه فى اعجاب ، كأنها تراه لأول مرة .

***

وبعد أن انصرف « كاليب » فى ذلك المساء ، أرقدت « بولى » فى فراشه ، وأطفأت الشمعة ، وخلعت ملابسها

فى الظلام ، وبدأت ترتدى قميص النوم .. **ولكنها توقفت فجأة ، وأضاءت الشمعة مرة أخرى ، ثم واجهت المرآة المدلاة على الحائط ، وراحت تنظر الى جسدها العارى برهة ..**

وما لبثت أن استدارت الى الشمعة بسرعة فأطفأتها ، وارتدت قميصها واستلقت على الفراش . ولكن النعاس لم يطف بعينيها ، وانما راحت تفكر فى الأكذوبة التى تعيش فيها !

وقد ظلت تفكر فى هذه الأكذوبة ، فى الأشهر التالية ، كل يوم .. كان وجود « كاليب » يجعلها تفكر فيها باستمرار .. كان يأتى نحوها مبتسما وهو يقول : « راشيل ! » .. **وكان ثمة شىء فى الطريقة التى ينظر بها اليها ، وفى نبرة صوته حين يكلمها ، يجعلها تشعر بأنها محبوسة فى سجن أكذوبتها !**

وكانت ــ أحيانا ــ تحس بأنه يحبها ، وتعرف أنه لن يقول لها ذلك ، مادام يعتقد أنها متزوجة ، فقد كانت ابرز صفاته ، هى عفته وفضيلته . ولو أنها اعترفت له بأنها غير متزوجة ، فسوف تفقد احترامه لها .. وكيف يمكنها ــ بعد ذلك ــ أن تعمل يوميا مع رجل لا يحترمها ؟.. ولكن لماذا تعترف له ، مادامت لا تحبه ؟

وطالت الأشهر ، فصارت أعواما . وقد كرست نفسها لتربية « بولى » ، ولم تنقطع عن التفكير فى بول .. وكانت تكتب له بانتظام ، وان كانت خطاباته هو اليها غير منتظمة.. وكان قد انتقل الى فرنسا الآن ، كضابط فى الجيش الامريكى ، بعد أن نقل من سلاح الطيران البريطانى عقب دخول أمريكا الحرب .. ولم تكن « راشيل » تنقطع عن التفكير فيه ، فى أية لحظة : ماذا يفعل الآن ؟.. أين هو ؟.. هل هو يفكر فيها ؟.. وكانت خطاباته هى أثمن الأحداث فى حياتها .

ولكنها كانت أحيانا ــ فى ذات اليوم الذى تكون قد تلقت

فيه خطابا منه - تنساه ساعات طويلة ، حين تنهمك فى أعمال الارسالية مع كاليب . فقد كان نشاط كاليب يستثير على الدوام انتباهها ، وأحيانا اعجابها .

وقد مضى كاليب يفكر فى مشكلة الافريقيين ، وفى الطريقة التى يوفر لهم بها الرفاهية الاقتصادية على مقتضى رأيه ، ومن ثم أصبح يقضى جزءا كبيرا من وقته فى اجراء التجارب لزراعة الأرض .

***

واستعار « كاليب » من هنرى لوكومت كتبا تبحث فى زراعة المناطق الاستوائية ، وأخذ يتنقل بين الشمال والجنوب، يجمع المعلومات من المزارعين البيض . وقد حصل على بعض البذور النادرة من أحد المراكز الزراعية ، فراح يبرهن لأهالى (دايبيلا) على أن الأرض هى خير مورد للقوت ، بدلا من الصيد الذى لم يعد يسد حاجتهم .

وكانوا يعتقدون أنه ليس من اللائق - مع صفة الرجولة - أن يعمل الرجل فى الحقل ، فراح يعمل أمامهم بالزراعة دون أن يعتبر أن ذلك يحط من كرامته .. وقد زرع بعض أشجار البن فى الأرض المجاورة للارسالية ، ومن ثم بدأ الاهالى يراقبونه ، ويساعدونه فى عمله .. كما اهتم بتربية الماشية . ولما كانت تربية الماشية متعذرة ، اذا وجدت الحشرات القاتلة لها ، فقد راح يجوب الغابات المحيطة باحثا ودارسا ، ثم - بعد حوالى شهر - قال لراشيل انه مقتنع بأن البلاد خالية من اى نوع من أنواع ذبابة التسى تسى التى تقتل الماشية .

وراح يجرى اتصالات بالمهندسين الزراعيين فى مختلف انحاء الكونغو ، ليستورد بعض الماشية . وأخيرا ، قال

لراشيل أنه اعتزم شراء بقرتين وثور من احد المزارعين البيض . بالقرب من ايرومو . وما لبث ان اخذ مزيمبا ووانجا وكولو وسافر الى هناك . **ولكن الرجل الابيض عدل عن رأيه ، ورفض أن يبيعه شيئا .. ثم ـ بعد الالحاح الشديد ـ باعه بقرة واحدة !..** حتى اذا عادوا بها ـ بعد ثلاثة أيام ـ راح أهالى (دايبيلا) يتطلعون فى استغراب الى هذا الحيوان الذى لم يروه من قبل ، بينما كان كاليب يراقب بقرته فى فرح . وقد جرى « بولى » خلفه ، فرفعه بين يديه وراح يقبله ..

وكانت راشيل تطل من الشرفة ، فشعرت بالدموع تتبادر الى عينيها .. ليت الرجل كان « بول » !.. ولكن بول لايفهم هذه الأشياء كما تفهمها هى وكاليب .. كان كاليب وسيما مثل بول ، ولكنه قوى !

وفى المساء ، تناول « كاليب » العشاء على مائدتها ، ثم جلس فى صمت . وراح يشعل غليونه ؛ بينما كانت هى تضع « بولى » فى فراشه .. وفجأة دوى قرع الطبول ، فاندفع هو صوب الشرفة . وجاءت هى تهرول خلفه ، وراحا ينصتان فى سكون . وسرعان ما سمعا صياحا يأتى من بعيد ؛ فقال كاليب : « سأذهب وأرى ما هنالك ! » . فقالت : « سأذهب معك » .. وما أن تقدما فى الظلام بضع خطوات ، حتى أقبل كولو قائلا : « لقد انتهت الحرب يا مدام .. انتهت الحرب يا مدام » .

وتعلقت بقوة فى ذراع كاليب ، ووقفت ساهمة ، لماذا لا تضحك الآن أو تبكى ؟.. لابد أن الناس فى كل مدن العالم يضحكون الآن أو يبكون من الفرح .. ولكنها تقف هنا فى الظلام الحالك دون أن ينتابها أى احساس على الاطلاق . فقال كولو : « أليست أنباء طيبة يا مدام ؟ » . ولكنها لم تجبه .

وما لبث كاليب أن قال فجأة : « قولوا للأهالى أننا سنجتمع فى الكنيسة ، لنشكر الله » .

- ٢٣ -

• **بعد** شهر من انتهاء الحرب فى المحيط الهادى ، قطع لوكومت الطريق الى دايبيلا . وكانت راشيل فى المستشفى حين وصل ، فأسرعت لتحيته ، كما اندفع « بولى » نحوه يقول له الجملة الفرنسية الوحيدة التى علمته اياها أمه ، وهى : « كيف حالك يامسيو لوكومت ؟ » . وارتمى على صدر الرجل ، فرفعه هذا بين ذراعيه ضاحكا ، والتفت الى أمه قائلا : « يسرنى أن أراك مرة أخرى يا راشيل .. انك جميلة كما أنت دائما ! » . وعندئذ جاء كاليب فصافحه ثم قال : « لقد جئت ببريد اليوم » .

ومدت راشيل يدها دون وعى .. فهل ثمة خطاب منه يا ترى ؟.. كلا ، مع الأسف ..

وقالت للوكومت : « هيا الى المنزل » ، ثم التفتت الى كاليب قائلة : « تعال اقرأ خطاباتك عندى ! »

وفى المنزل قال لوكومت : « اننا — أنا وزوجتى — سنأخذ أجازة لمدة ثلاثة أسابيع ، وسنذهب للصيد فى (جوما) لنتمتع برؤية البحيرة الجميلة ، ثم نأخذ قاربا الى (بوكوفو) ، حيث ننزل فى فندق هناك ، كالسياح الأغنياء » . فقالت راشيل : « يالها من رحلة رائعة ! » . قال : « أتحبين أن تذهبى معنا ؟ » . **فترددت برهة .. كانت تتمنى أن تذهب ، ولكنها قد تتلقى فى أى لحظة كلمة منه .. من بول .**

وما لبثت أن قالت فى تأكيد : « كلا . أشكرك يا هنرى . لا أستطيع » . فصدرت عنه آهة مكبوتة ثم قال : « اذن اسمحى لنا بأن نأخذ بولى معنا .. ان مارى تود ذلك ، وهذا هو سبب مجيئى اليوم » . فقالت فى نفسها : « كلا . يجب الا ينفصل عنى » . واستطرد لوكومت قائلا : « انه لم

يذهب أبدا الى أبعد من روجيرى .. ومن المفيد له ان يرى شيئا من العالم الخارجى » .

فقالت راشيل : « اسأله ! » . وقال اوكومت للصفير : « بولى .. أتحب أن تذهب معنا فى رحلة قصيرة ؟ »

ـ هل سترون الأسود ؟

ـ نعم .. سنراها ، وسنرى كذلك الجبال ذات الأبخرة ، والبراكين المتوهجة فى ظلام الليل ، وسنسبح فى بحيرة ادوارد الجميلة ، حيث توجد التماسيح التى تأكل الانسان ، ثم نجوس فى البحيرة خلال الجزر الجميلة الخضراء ، الى المدينة البيضاء القائمة على التلال .. وسأرسل خطابا الى صديقى ملك أوراندى ليسمح لنا بدخول مملكته ، حيث تنقلب الأرض الى قرمزية بعد الظهيرة ؛ وحيث معظم الناس يبلغ طولهم سبع أقدام .

فصاح بولى فرحا : « نعم سأحمل بندقيتى وأذهب ! »

وسرعان ما تحركت السيارة به ، فانفجرت راشيل باكية ، وعندئذ اقترب منها كاليب ، ولمس كتفها برفق . فشعرت بالاضطراب من هذه الحركة الرقيقة التى تفيض عطفا وفهما .

وقالت له : « تعال نجلس فى الشرفة » . وهناك جلسا فى سكون ينظران الى الجبال الرائعة ، وينصتان الى هديل اليمام على شجرة « الليمبالى » . وفجأة قال لها : « راشيل .. هل تعلمينني كيف أطلق المسدس ؟ » . فنظرت اليه فى دهشة قائلة : « لماذا ؟ »

ـ انها قصة طويلة .. وهى تبدأ بالبقرة التى اشتريناها .. فقد أثبتت أنها مفيدة هنا كما تعلمين .. ولما كانت المواد الغذائية تتناقص فى دايبيلا ، فقد اتخذت قرارا اقتصاديا سيؤدى الى ثورة حقيقية فى الواقع .. وتنفيذا لهذا القرار ، سأشترى عشرين رأسا من الماشية ، وأجىء بها الى هنا .

ـ ولكن من أين ستجىء بها ؟

ـ من المركز الزراعى فى (بيلاك) .

ـ ولكنه يبعد مائتين وخمسين ميلا ، فكيف ستنقلها ؟

ـ لا أعرف .. وربما اضطررنا لان نجىء بها سيرا على الاقدام .. كل ما أعرفه اننى كنت أراسل شخصا هنا منذ سنتين ، وقد جاء لى منه خطاب اليوم فقط ، يقول لى فيه ان الحكومة مستعدة لان تبيعنا عشرين رأسا . وقد أقنعتهم بأن المنطقة خالية من التسى تسى ، فوافقوا على بيع الماشية .

ـ ومن أين لك ثمنها ؟ هل أنت غنى الى هذا الحد ؟

ـ لقد ادخرت مرتبى ، وسآخذ كولو وكوزونجو ، اذا كان بوسعك الاستغناء عنهما . ويمكن لوانجا أن ينقلنا بالسيارة الى بيلاك .. ولكننا سنضطر الى العودة بالماشية على الاقدام .. ولذلك أظن من المستحسن أن آخذ معى المسدس ، وأن أتدرب على استعماله فى هذين اليومين .. قبل أن أذهب .

ـ من الخطأ أن تقوم بهذه المخاطرة .

ـ كلا يا راشيل ، والا فلماذا لم تكن مخاطرة بالنسبة اليك ، حين قررت أن تتسلقى الجبال ؟

ـ أواه يا كاليب ، لا تفعل .. لا تفعل !

قالت ذلك وهى تعتمد وجهها بين كفيها .. ولكنها بعد برهة رفعت وجهها ، وتطلعت اليه قائلة : « سأحاول أن أعلمك كيف تستعمل المسدس .. وسأذهب معك ! »

فقال فى دهشة : « واـكن .. » فقاطعته فى حزم قائلة : « سأذهب ! » .. ثم غادرته قبل أن يقول شيئا ..

ـ ٢٤ ـ

وفى يوم الرحيـــل ، نهضوا فى الفجر ، وملأوا سياراتهم بالامتعة . ولم تكن راشيل واثقة من أنها ستجد مكانا لنومها فى (بيلاك) ، فأخـــذت معها فراشها المتنقل ، وأخذ كولو وكوزونجو رماحهما وأقواسهما وسهامهما .. والتفت جموع كبيرة من الاهالى حول الســيارة ليودعوا الراحلين ، وراح

جوب ــ كلبهم المدلل ــ يجرى هنا وهناك ، ثم قفز اخيرا داخل السيارة وقبع بين راشيل وكاليب فى المقعد الخلفى ، بينما انحشر كولو وكوزونجو فى المقدمة بجانب وانجا.

وعندما بلغت السيارة (روجيرى) ، طلب كاليب الى وانجا أن يتوقف عندمكتب الحاكم ، قائلالراشيل : « سنرى ، عسى أن يكون لنا بريد هنا » . ودخل المكتب ، ثم لم يلبث أن خرج يحمل خطابا ناولها اياه وهو يقفز الى السيارة .

وكان الخطاب من بول . وبيد مرتجفة مزقت الغلاف ، وراح بصرها يجرى على السطور : « حبيبتى راشيل .. اكتب اليك الآن وأنا جالس فى احد نوادى واشنطن ، وقد انتهت خدمتى فى الجيش .. وغدا سأسافر الى نيويورك ، حيث أبدأ العمل . ان ثمة فرصة حقيقية تلوح امامى وسأنتهزها : فقدسبق لى أن عملت فى أحد مستشفيات فرنسا، مع طبيب أمريكى من ذوى المقدرة الفائقة ، يدعى «أيد جينيفر» وقد عاد الآن الى نيويورك وطلب منى أن أعاونه فى مستشفاه .. هذه هى القصة ياطفلتى .. وانها الفرصة العمر .. »

قالت فى نفسها : « نعم .. لقد طالما تمنى أن يكون غنيا ، وهذه هى فرصته ! »

ثم واصلت القراءة .. وأخذ قلبها يخفق بشدة ، وهو يقول لها : « اننى أعرف ما تفكرين فيه الآن يا راشيل .. انك تقولين أن بول قد ذهب ليختفى هناك ، فى شاطىء نيويورك الذهبى .. ولكن اسمعى يا صغيرتى .. لقد كنت على الدوام افكر فيك ، وقد انطبعت فى ذاكرتى كل الصور التى جمعت بيننا فى دايبيلا .. **والآن أطلب اليك يا راشيل أن تأتى الى نيويورك وتتزوجينى .. »**

وملأت الدموع عينيها .. وأعادت قراءة هذه العبارة مرة أخرى ، وهى لاتكاد تصدق ، وكان ختام خطابه : « تعالى مسرعة يا راشيل .. فأنا فى انتظارك » .

واطلت من النافذة وقد حجبت الدموع المناظر عن عينيها ، وراحت تقول فى نفسها : « فلأغادر السيارة ، ولأقفل راجعة .. يجب أن أسافر وألحق به فى الحال » .. نعم يجب . فتلك هى اللحظة التى كانت تنتظرها ، وتنحصر كل آمالها فيها!

***

وحين استدارت الى كاليب ، كان ينظر اليها ، فغض بصره .. وقالت بصوت خافت : « خطاب من بول .. انه يريدنى أن أعود الى الوطن بأسرع ما يمكن » .

وصدرت عن كاليب اختلاجة مفاجئة ، وقد اندفعت قدمه الى الامام ، كأنما أصيبت بصدمة عنيفة .. وصمت فى ذهول ، ثم قال أخيرا ، وكأنه يقرر حقيقة لا مفر منها : « وستذهبين ! » . فقالت : « نعم ، يجب أن أذهب » .

وصمت مرة أخرى طويلا ، ثم لمس يدها فى رفق قائلا : « سنفتقدك ياراشيل » . ثم أردف فى مرارة : « بدونك لن تمضى الحياة بى كما كانت » . فشهقت قائلة : « أواه .. بربك لا تجعل الامر صعبا بالنسبة لى ! » . ثم أدارت رأسها لتخفى دموعها .

وأحست بكولو ينظر اليها .. لم يكن بحاجة لان يفهم الانجليزية ليحس بأن شيئا ما قد حدث ، فكيف تفضى اليه بالامر ؟ .. كيف تقول وداعا له ، ولهم جميعا ؟

قال كاليب : « ربما كان الافضل ألا تذهبى الى بيلاك الآن . اننا نستطيع .. » ولكنها قاطعته قائلة : « بالتأكيد أنا ذاهبة الى بيلاك .. ان بولى سيغيب مع لوكومت وزوجته ثلاثة أسابيع .. ثم ان أمامى الكثير لأفعله قبل سفرى » .

وران عليهم الصمت وهم يتجهون شمالا ، منطلقين من مرتفعات (روجيرى) الى غابات (ايتورى) . وبينذاك ، راحت راشيل تتخيل الرحلة التى تنتظرها .. تتخيل السفر الطويل بالسيارة الى (ستانلى فيل) ، ثم اجتيازها النهر

بالقارب الى ليوبولدفيل ، ثم مواصلة الرحيل بالخط الحديدى الى (ماتادى) ، حيث تنتظر هناك - فى الفندق ذى الطراز الاسبانى فوق التل - حتى تأتى السفينة التى تنطلق بها بين أحراش الموز الى مصب نهر الكونغو ، حيث تغادر افريقيا ، وحيث ألقى مليون من الافريقيين النظرة الاخيرة على أرض وطنهم ، وهم يرحلون تحت سياط النخاسين الامريكيين الذين أخذوهم الى جحيم العمل فى أمريكا .

نعم . انها ذاهبة .. لقد طلب اليها أن تذهب ، وستذهب .. طلب اليها ذلك ، بعد سنين طويلة من الشك ؛ ومن الخوف من ألا يفعل .. وها هو ذا قد فعل .. فعل لانه يحبها ، وقد اعترف لها قبل أن يذهب بأنه يحبها ؛ وظل مخلصا لها طوال مدة ابتعاده عنها .. لقد كان واقعيا ، وكان مفهوم الواقعية فى عالمه هو المال والجاه ، فليمض اذن فى طريقه !.. ومادام يحبها فلتمض معه فى هذا الطريق ، ولتذهب اليه .. فورا !

***

ماكان الصيد فى غابات افريقيا لينقطع بين يوم وليلة . ومع ذلك ، فقد خيل للناس - فى غرب الجبال وشمالها - انهم استيقظوا ذات صباح ، فاذا الصيد قد انقطع . انهم يتذكرون أن الصيد كان نادرا خلال فصول كثيرة ، ولكنهم فى هذه المرة رأوا أنفسهم - فى قرية بعد قرية - يعودون من الغابة صفر الايدين .. وقد تكرر ذلك أياما متوالية .

وكانت مجموعة من الاسود تتجول آتية من الشمال عبر السهل ، يدفعها الجوع للبحث عن صيد . وقد رؤيت اول مرة بالقرب من قرية صغيرة على سفح الجبل الشمالى ، حيث لم تكن قد رؤيت من قبل طوال فصول عديدة . وحدث أن اعتلى رجل شجرة باسقة ، ليتطلع منها الى الصيد ، فرأى عائلة من الاسود تتألف من ذكر واناثه واشباله تتجول بين

الاشجار فى بطء . وأمسك الرجل أنفاسه ، وتصبب بالعرق جسمه حين أبصرها تمر بالقرب منه . وفى اليوم التالى ، افترست الاسود شاة يملكها رئيس القرية ، فما رآها الاهالى تفتك بالشاة حتى تملكهم الذعر ، وأشعلوا فى تلك الليلة نارا بالقرب من أكواخهم ، وقضوا الليل يرهفون آذانهم فى خوف ، وهم مختبئون فى مخادعهم .

الا أن واحدا منهم كان يسكن فى أطراف القرية ، ولديه ست غنمات ، فانقض الاسود عليها وأكلوها ، بينما كاد الرجل يموت من الرعب داخل كوخه .. حتى اذا خرجت الاسود فى اليوم التالى لتنام فى ظل الاشجار ، انطلق يجرى نحو القرية . وعندئذ ارتفعت أصوات الطبول تتردد فى سفح الجبل ، مذيعة أن ثمة أسودا ترعى فى الوادى .

وفى قرى كثيرة ، من سفوح الجبال حتى شواطىء النهر، وعلى طول الغابات ، راح الرجال يشحذون رماحهم ويتحدثون عن صيد الاسود . ولكن واحدا منهم لم يجرؤ على الخروج من كوخه ، بينما انطلقت الاسود فى الوادى متشممة رائحة الاغنام التى أصبح لحمها يثير شهيتها ، وقد راحت تهيم فى الجنوب وفى الشرق باحثة عن أرض غنية . ولكن الارض كانت قاحلة ، فلم تجد بها شاة واحدة تسد بها رمقها .

وسرعان ما سمع الاهالى بما حدث لشاب من قرية (ديكا) ، كان قد اتجه نحو الشرق ليخطب لنفسه منها زوجة .. وفى اليوم التالى وجد الاهالى عظامه ، وقد افترسته الاسود ، ثم أكلت الضباع بقاياه .

- ٢٥ -

• وفى بيلاك ، قال كاليب فى نفسه أنهم محظوظون ، اذ استقبلهم دوفال مدير المركز الزراعى استقبالا ملكيا ، وزودهم بمقطورتين لنقل الماشية . وكان فى أول الامر مترددا

فى اعارة المقطورتين وسائقيهما ، مع أن كاليب أكد له أن الماشية ستتعرض لذباب التسى تسى اذا هو قادها على اقدامها عبر الغابات .. بيد أن راشيل أنقذت الموقف ، اذ ضربت للمدير على وتر الشهامة ، موحية اليه بأنه سيؤدى هذه الخدمة من أجلها هى ، لا من أجل كاليب ، ولا من أجل القطيع ، وسرعان ما وافق المدير ، وهو يشرب نخبها !

وفى فجر اليوم التالى ، خرجوا من بيلاك . وكان المطر يتساقط ، وقد ركبت راشيل السيارة مع وانجا ، متقدمة الركب .. وركب كاليب فى المقطورة الاولى ، التى كانت تحمل جزءا من الماشية ، وقفز جوب فقبع بينه وبين السائق الافريقى ..

وفى الطريق ، أطلق وانجا للسيارة العنان ، ولكن راشيل كانت تطلب اليه كل بضعة أميال أن يتوقف ، وينتظر حتى يلحق بهما الآخرون . ولاحظ كاليب اهتمامها بالماشية وتفكيرها فيها ، أما هو فلم يكن يفكر فى الماشية ، وانما راح يفكر فى راشيل ، أو بالاحرى فى نفسه ، قائلا : « اننى لا أعرف ماذا عساى أن أفعل بنفسى حين تذهب ! »

كان من العسير عليه الآن أن يتذكر متى أحبها .. وكان يعرف - طوال السنوات الماضية - أنه حب بلا أمل ، بيد أنه كان يتساءل فى نفسه أحيانا قائلا : «ولماذا .. بلا أمل ؟» . ثم لا يلبث أن يجيب على نفسه قائلا : « لانها أيها الاحمق متزوجة ولها ولد من زوجها . وهى مقيمة على حب هذا الزوج كل هذه السنين .. وهى تحبه الآن ، وستأخذ الولد وتذهب اليه ! » .

وكان من شأن العمل أن يغدو عسيرا معها فى دايبيلا ، لو أنه صارحها بأنه كان يحبها .. بل أنه كان خليقا بأن يغدو مستحيلا . وكان كاليب يفكر فى الزنا أحيانا ، فهو

انسان وليس ملاكا ، ولكنه قاوم رغبته هذه مقاومة عنيفة ، بوازع الدين ووازع العقل معا .

***

وما لبث كاليب أن أفاق من أفكاره ، فاذا بهم قد قطعوا سبعين كيلو مترا فى الطريق الى دايبيلا .. ونظر خلفه الى الماشية فرآها مخلدة الى الدعة والسكون على الجرارين ، وقد أحنت رؤوسها تحت وابل المطر المتساقط . ثم أخرج الخريطة التى أعطاها له « دوفال » فى (بيلاك) ، وراح يتأملها . لقد أوضح فيها دوفال المناطق الموبوءة بذبابة تسى تسى ، وهى مناطق الغابات .. أما مناطق السافانا فكانت خالية من هذه الذبابة القاتلة . واذن فقد كان عليهم أن يسلكوا طريق (السافانا) ، وأن كان أطول من طريق الغابات ..

وشعرت راشيل فى تلك الاثناء أن سيارتها قد ابتعدت كثيرا عن بقية القافلة ، فطلبت الى وانجا أن يوقف السيارة .

وهناك ، فى رحبة واسعة على جانب الطريق ، وقفت تحت شجرة من أشجار المانجو ، وشعرها الاسود معقوص تحت قبعتها العريضة ، وقد استندت باحدى يديها الى جذع الشجرة ، ووضعت اليد الاخرى على خاصرتها . وماهى الا دقائق حتى أقبل كاليب ، فما رآها حتى نزل من سيارته واتجه نحوها .. وتلقته بابتسامة حلوة خلال المطر المتساقط

.. فقال لها وهو يقترب : « وددت لو كانت معى آلة تصوير .. انك تبدين الآن بالصورة التى سأتذكرك بها دائما ياراشيل ! » . فوجمت قليلا ، وأنزلت يديها ووضعتهما فى جيبها الاماميين ، وقالت ساهمة : « كيف حال الماشية ؟ » فقال : « بخير » .. واستدار ، وقد يئس من أن تتاح له الفرصة كى يعبر عن عواطفه نحوها ، وذهب يتفقد الماشية .

وما لبثوا أن واصلوا المسير ، فبلغوا — بعد بضع ساعات — شقة ضيقة تؤدى الى جسر صغير يمتد بعده

الطريق الى قرية (نولى) . وبـدا لكاليب أن ذلك الجسر
ـ القائم فوق أحـد النهيرات ـ لن يتحمل مسير الجرارين
المحملين بالماشية ، فأمر بانزال الماشية لتعبر الجسر أولا
على أقدامها . **ولكن الجسر لم يتحمل الثقل فتحطم ، ومن
ثم اضطروا الان يجعلوا الماشية تعبر النهـر سـابحة ..**
وصاح سائق الجرار : « ماذا نفعل نحن الآن أيها السيد
الابيض ؟ » فأجابه كاليب : « عودوا بالجرارين الى بيلاك
.. أما نحن ، فسنمضى فى طريقنا على الاقدام » .
وفى الجانب الآخر ، كان رجل من (نولى) يتسلق احدى
أشجار المانجو ، فقال له كاليب : « أين رئيس القرية ؟..
اننى أريد أن أستأجر بعض الرجال ليذهبوا معنا » .
فقال الرجل : « الى أين أيها السيد الابيض ؟ » قال :
« الى دايبيلا عن طريق ديكا » ، وعندئذ نظر الرجل اليه ،
وقـد اتسعت حدقتاه فى فزع ، ثم قال : « ما من أحـد
سيذهب معك فى هذا الطريق .. فقد جاءت الاسود الى
هذه البلاد مرة أخرى ، والناس قد تملكهم الخوف ! »

***

وفى هذه الاثناء ، كانت راشـيل تتقـدم بسيارتها ، غير
عارقة بما يحـدث لبقية القافلة خلفهـا .. كانت غارقة فى
الافكار ، وكانت تقول فى نفسها أنها حين تبلغ (دايبيلا) فى
المساء ، ستخبر « كاليب » بكل شىء : ستعترف له بأنهـا
كذبت حين زعمت أنها متزوجة من بول ، وأن بولى ابنهما
الشرعى !.. انهـا تريد أن يعرف كاليب الحقيقة قبل أن
تغادر افريقيا . لقد أعانتها هذه الاكذوبة على أن تظل مخلصة
لبول .. أما الآن ، فقد آن لها أن تعترف لكاليب ، دون أن
تخشى على هـذا الاخلاص من أن تشوبه شائبة ! انهـا
ـ لسبب لا تعرفه ـ تحس برغبة ملحة فى أن تصارح كاليب
بكل شىء !

وكانت الشمس ساطعة ، ولكنها حين نظرت الى الخلف ، لم تر أثرا للقافلة . فطلبت الى وانجا أن يتوقف ، ونزلت من السيارة ، ووقفت ترقب الطريق .. ولكنها ظلت عشرين دقيقة تحدق فى الافق ، دون أن ترى شيئا ، فطلبت من وانجا أن يعود بالسيارة .. وماان وصلت الى (نولى) ، حتى اتسعت حدقتاها لمنظر الماشية المتهالكة ، وقد أخذ منها التعب ، بعد المجهود الذى بذلته فى اجتياز النهر .. وقد وقف كاليب — بادى الارهاق واليأس — تحت شجرة المانجو ، ومسدسه معلق فى كتفه . فقالت فى جزع : « ماذا حدث ؟ » .. وأخبرها ، فى تؤدة ، بما حدث من تحطم الجسر ، فقالت : « اذن سننتظر حتى يصلحوا الجسر » . فهز رأسه فى بطء قائلا : « ان الامر يقتضى انتظارا طويلا يا راشيل ، فان الجسر يحتاج الى عدة أيام لاصلاحه » . وصمت هنيهة ثم قال فى يأس : « وستصاب الماشية بالتسى تسى » .. فصاحت قائلة ، وهى توشك أن تبكى : « أوه يا كاليب ! »

لم تكن تريد أن تبكى من أجل نفسها ، وانما من أجله هو .. فقد أنفق ما ادخره سنوات طويلة على هذه الماشية المعينة ، وها هو ذا يقف معها فى الوحل ، وهو لا يدرى ماذا ينبغى أن يفعل !.. وحدق فيها قائلا : « أنت تذكرين أن دوفال انبأنا بأن الطريق بين نولى ودايبيلا خال من التسى تسى ، فلو ذهبنا من هذا الطريق ، لامكننا أن ننقذ الماشية ! » . فقالت : « نعم . سنأخذها من هذا الطريق » . فأردف فى حزم : « سأذهب وحدى فى هذا الطريق يا راشيل . أما أنت فستعودين مع وانجا الى دايبيلا » . قالت : « بل أنا ذاهبة معك » . فقال فى خشونة : « كلا يا راشيل . لن تذهبى ! »

قالت : « بل أنا ذاهبة معك .. انك فى حاجة لاكثر من ثلاثة ، لتقود هذه الماشية » . وحاولت أن تبتسم وهى تستطرد قائلة : « ولا تنس أننى من (كانساس) ، وأننى أحسن

رعى الماشية » . ولكنه أجابها بقدر أكبر من الخشونة والحزم: « اننى لا أريدك أن تأتى !.. الى اللقاء يا راشيل » . وأولاها ظهره ، فتألمت للهجته تلك ألما شديدا .. ووقفت ذاهلة من مسلكه ، تراقبه وهو يذهب مع كولو وكوزونجو ، والماشية تسير مترنحة أمامهم .

لقد بدا لها أنه كان يتعمد أن يؤلمها .. وأيقنت أنه يفعل ذلك لكى لا تذهب معه ، ولكن .. لماذا ؟!

ووقفت فى عرض الطريق تنظر ناحيته ، حتى أوشك أن يغيب عن نظرها .. وكان أهالى (نولى) قد خرجوا — فى تلك الاثناء — من أكواخهم وراحوا ينظرون الى الماشية بدورهم ، ويهزون رؤوسهم ، ويتبادلون الاشارات فى دهشة واهتمام .. فقالت راشيل لاحدهم : « ماذا هنالك ؟.. لماذا يتجمع الاهالى ويشيرون الى الماشية ؟ » . فأجابها : « انهم يتجهون نحو الخطر ، فهنالك أسود ضارية فى المنطقة الآن .. وقد حذرنا السيد الابيض ! » .

أسود !!.. اذن فهذا هو السر .. وفهمت لماذا منعها من أن تذهب معه . كان الخطر يجثم فى ذلك الطريق ، وقد أبى أن يعرضها للخطر .. بل انه لم يشأ أن تعلم به ، مجرد علم !

ونظرت الى وانجا ، ثم قالت له : « خذ السيارة وعد بها الى دايبيلا » . فتملكته الحيرة .. ورفض أن يتركها وحدها ، واصر على أن يذهب معها الى حيث تذهب . ولكنها الحت عليه الحاحا شديدا ، حتى لم يسعه — آخر الامر — الا أن يرضخ لمشيئتها ، فانطلق بالسيارة .. وحده !

— ٢٦ —

• **كان** « كاليب » قد قطع — فى تلك الاثناء — حوالى ميلين بعد (نولى) . وهناك وجد مكانا يصلح لان يقضوا فيه الليل . وكان الظلام قد أرخى سدوله ، فراح — هو وكوزونجو —

يربطان الماشية بالحبال ، بينما أخذ كولو قوسه ، وذهب يصطاد ، مستصحبا جوب معه . ثم عاد بعد قليل ، ومعه عشرة أرانب ، فأوقدوا النار وراحوا يجهزون الطعام .

وفجأة ، انتصب جوب على أقدامه وراح يعوى ، وقد اتجه برأسه الى ناحية الشمال . فحدق «كاليب» فى اتجاه رأسه خلال الظلام ، وما لبث أن رأى شبحا يقترب . وبعد هنيهة ، تبين لدهشته أن القادم هو « راشيل » .. وكانت وحدها !.. فصاح فى غضب : « راشيل .. أيتها المجنونة ! » .. بينما هتف كولو ، جذلا : « أهذه هى المدام ؟.. اذن سيكون الحظ حليفنا ! »

وعاونتهم راشيل فى حلب الابقار ، وفى شى الارانب ، فشربوا اللبن الساخن ، وتمتعوا بوليمة الارانب المشوية .. وما عتم أن ارتمى كولو وكوزونجو على الارض ، وغرقا فى نوم عميق .. بينما راحت الماشية تتململ فى قلق وهى تحدق فى النار بأعين فزعة . وأخذ « كاليب » غليونه من فمه ، وابتسم لراشيل وهى جالسة أمامه . لقد اعترف — لنفسه — بأنه كان مسرورا لوجودها معه ، كما كانت هى مسرورة بوجوده معها . وما لبثت أن قالت له معاتبة : « اذن فأنت تعتقد أننى مجنونة يا كاليب ؟ »

— لست مجنونة .. وانما متهورة !

— كلا ، لست متهورة . لقد قضيت حوالى الساعة هنالك فى (نولى) أفكر ، وانا أراقبك حين كنت تبتعد فى الوادى .

— فيم كنت تفكرين حوالى الساعة يا راشيل ؟

— فى كل شىء .. فى دايبيلا ، وفيك ، وفى بولى ، وفى بول .. ودار بخلدى — بوجه خاص — ان فى امكانى أن أساعدك هنا يا كاليب » .

فصمت قليلا ثم قال : « انك لاتريدين أن تتركى أفريقيا

.. اليس كذلك ؟ » .. فلما لم تجبه ، أردف : « انني أفهم . هذا عين شعوري حين أزمع أن أترك أفريقيا ، **لأن هذه الأرض قد ملكتنا ، ولكننا لن نستطيع أبداً أن نملكها .. انها ليست أرضنا . انها ملك لأبنائها .. لهؤلاء ! »**

وأشار الى كولو وكوزونجو النائمين ، ثم أردف قائلا : « لسوف نذهب .. سنضطر لأن نذهب ! » .. ثم استطرد بعد قليل : « بيد أن حالك يختلف عن حالي الآن ، فان لديك ما يدفعك لان تتركي هذه الأرض .. ابنك ، وزوجك .. وانه لدافع قوي يحملك على الذهاب ! »

ــ هل تريدني انت أن أذهب ؟

ــ أريدك أن تذهبي ؟.. بالتأكيد لا اريدك أن تذهبي ، ولكنك قلت أنك ذاهبة و ..

ــ واني لذاهبة .. يجب أن أذهب ، لأن ..

ــ طبعا يا راشيل .. لأن زوجك ينتظرك ..

ــ زوجي ؟

قالتها في لهجة غريبة ، ثم اندفعت تستطرد ، دون أن تنظر اليه : « هنالك شيء كنت أريد أن أفضي به اليك ، حين نعود الليلة الى دايبيلا .. ولكنني سأقوله لك الآن ، وربما يكون هذا هو السبب في أنني تبعتك .. ان بول ليس زوجي ! »

ــ ماذا ؟!

ــ انني لم أتزوج بول . لم أكن زوجته قط . لقد كانت مجرد علاقة عابرة ، وبولي ليس الا طفلا غير شرعي !

وانتصب واقفا على قدميه ، وكأنما انقضت عليه صاعقة ، وقد بدا أنه شاخ واكتهل في لحظة !.. فقالت له في هدوء : « اجلس يا كاليب !.. اذن لقد صدمك الأمر ؟ » . غير أنه لم يجب ، وانما ظل يحملق في الظلام ، ثم حدق فيها ، قائلا بصوت متهدج : « بالتأكيد .. بالتأكيد صدمني الأمر » .

ــ وها انتذا ترى اننى لست امرأة فاضلة !
ــ لم يكن هذا ما فكرت فيه .
ــ فيم كنت تفكر اذن ؟
ــ لا أظن أن ذلك يهمك .. وانما كنت أود لو ذكرت لى ذلك من قبل !
ــ قبل ماذا ؟
ــ قبل الآن .. قبل سنوات .
ــ لم أكن أستطيع .. كنت مضطرة لأن أعيش فى هذه الأكذوبة الفظيعة ، والا لأجبرونى على أن أغادر دابيلا ، بل وافريقيا كلها !.. ارتكبت ما يعتبرونه هم خطأ ، ولكنه لم يكن خطأ بالنسبة لى . لم يكن خطأ حقيقيا !.. ولذلك لم أكن أريدهم أن يخرجونى ، فليس لى مكان أذهب اليه .. كنت أريد أن أبقى . وكانت الوسيلة الوحيدة لأن أبقى هى أن أكذب !
ــ اننى أحد أولئك الذين تتحدثين عنهم يا راشيل .. اننى قسيس ، وواعظ ، ولكننى أفهم ..
ــ أنت تختلف .. ولا أظنك الا تعرف ما كانوا سيفعلونه بى . ولست ألومهم ، وانما ألوم نفسى ، لأننى اضطررت لأن أكذب . فلست أريد أن أكون امرأة مثقلة بالاكاذيب ، ولذلك أردتك أن تعرف لماذا كذبت يا كاليب ..
ــ وهل بول يعرف شيئا ؟..
ــ عن بولى ؟.. كلا انه لا يعرف شيئا ..
ــ يا الهى ، ألم تقولى له ؟.. لابد انك كنت تحبينه .
ــ بالتأكيد كنت أحبه .
ــ وهل تحبينه الآن ؟
وصمتت ، ثم قالت : « اننى أفكر فى بولى .. فى مستقبله .. فى اسمه .. فى احترامه لنفسه ! »
ثم نهضت قائلة : « لقد غلبنى النعاس .. أشكرك على

حديثك معى يا كاليب .. سعدت مساء ! »
ـ سعدت مساء يا راشيل .

***

وتركته يفكر ، ويحدث نفسه : « لو أننى عرفت ، فماذا كنت لأفعل ؟.. كنت سأبوح لها بحبى ، وأطلب اليها أن تتزوجنى .. أما الآن ، فقد فات الاوان . لقد استدعاها بول .. وستذهب اليه ! »

وبعد أن أرهق نفسه بالتفكير ، نام ـ أخيرا ـ نوما مضطربا ، حتى تساقط المطر على وجهه فى الصباح فأيقظه. وكان كولو قد أوقد نارا كبيرة ، جلست اليها راشيل ، فما فتح عينيه حتى رآها تبتسم له فى مرح قائلة : « سعدت صباحا .. هل كنت تبغى أن تنام طول النهار ؟ »

ـ سعدت صباحا يا راشيل .

ـ اشرب قهوتك ، ونصيبك من اللبن ، فقدحلبنا الأبقار. انه لافطار جيد ، وها أنتذا ترى أننى كنت ذات فائدة ، وانكم فى حاجة الى وجودى معكم !

ـ **نعم يا راشيل ، نحن دائما فى حاجة اليك !**

ـ هل نمت نوما هادئا ؟

ـ نعم .. هادئا جدا .

ثم واصلوا المسير ، فقطعوا فى ذلك اليوم نحو عشرة أميال .. حتى اذا جاء الظلام ، ناموا ليلتهم فى العراء ، ثم واصلوا المسير فى الصباح مرة أخرى . وعند الظهيرة ، اقتربوا من ضفة أحد الانهار ، المواجهة لقرية (ديكا) ، فما لبث أهاليها أن خرجوا وتجمعوا يتطلعون اليهم ، وصاح واحد منهم : « لقد سمعنا عنكما أيها المدام وأيها السيد الابيض من دايبيلا .. لماذا أتيتما بالماشية من هذا الطريق ؟ »

فقال كاليب : « كى نعود الى دايبيلا » .

فظهر الذعر على الرجل ، وصاح : « يحسن أن تعودوا

من حيث جئتم أيها السيد الابيض ، فان المنطقة التى بين قريتنا وقريتكم تنتشر فيها الاسود الآن ، **وقد افترست الاسود بعض الغنم ، ولن تلبث أن تتحول الى الانسان ! »**

فقال كاليب : « لهذا السبب جئت الى هنا ، ومعى هذا ! » . ورفع مسدسه فى يده ، ثم استطرد : « لقدسمعت أن أهالى ديكا من أعظم الصيادين ، ولكنى أراهم اليوم يختبئون فى أكواخهم طول النهار ، بحجة أن هناك أسودا فى المنطقة .. استدع لى رئيسك ! »

وعندئذ تكلم الرجال معا فى لغط وجلبة ، فقال كولوا مبتسما : « لقد أثرت اهتمامهم أيها السيد .. اننى أفهم ما ترمى اليه .. وانها اخطة بارعة ! »

وبعد هنيهة ، برز من بين الاهالى رجل ضخم الجسم طويل القامة ، قال انه الرئيس « كيفا » عمدة (ديكا) . فقال له كاليب : « اننى فى حاجة الى عشرين من أفضل رجالك أيها الرئيس كيفا » . فقال الرئيس : « هذا يكلفك كثيرا » . فلما راح كاليب يساومه ، طلب — نظير اعارة الرجال — بقرة حلوبا . وكان الطلب قاسيا على كاليب ، ولكنه اضطر أخيرا الى قبوله !

وقضوا تلك الليلة على شاطىء النهر . وفى الصباح ، جاء عشرون رجلا من (ديكا) ، عبروا النهر ، وانضموا اليهم .. ثم استأنف الجميع الرحلة ، فى طريقهم الى مواجهة الاسود !

***

وتقدمت الحملة من (ديكا) عند الفجر ، وهى تسير تحت وابل المطر الغزير ، يتقدمها كولو ، والسيد الابيض ، ثم راشيل يتبعها الكلب الصغير جوب ، وأخيرا رجال ديكا العشرون يحملون الحراب ، وكل منهم يقود رأسا من الماشية .. وخلف الاخير منهم ، سار كوزونجو . وكان رجال (ديكا) محاربين أبناء محاربين ، ولكنهم أخذوا يسيرون كأنهم

السجناء ، وقد طأطأوا رؤوسهم فى استسلام ومذلة . وظلوا يواصلون السير طوال النهار ، حتى اذا أعتم الليل ، تسللوا هاربين تحت جنح الظلام واحدا واحدا ـ والباقون نيام ـ حتى بلغ عددالمتسللين أحدعشر .. عادوا أدراجهم الى(ديكا)!

وفى الصباح ، اكتشف كاليب فرار الرجال ، فكاد ينشق من الغيظ .. غير أنه لم يجد بدا من المسير بقافلته تحت وهج الشمس المحرقة .. وما لبث أن شعر بالصداع ، فحسبه عارضا سرعان ما يزول . ولكن الالم ما فتىء يزداد ، وقد اكتسى وجهه بصفرة كالحة . فتطلعت اليه راشيل فى تساؤل قائلة : « هل أنت مريض يا كاليب ؟ » . فأجاب : « كلا .. وانما هو صداع خفيف » .. **وفجأة انتزع المسدس من خاصرته وأعطاها اياه قائلا : لن نستطيع أن نستمر بدون ماء . فاذهبى أنت وكولو سريعا ، واسبقانا عسى أن تعثرا على الماء .. وسنتبعكما !)) . فقالت : ((ولكننى لا أريد المسدس)) . فقال فى خشونة : ((خذيه معك !)) .. فترددت، ثم أخذته وانطلقت مع كولو .**

وكان كل شىء ساكنا ، فى تلك المنطقة .. فلم يكن ثمة الا حفيف الاعشاب وهى تهتز أمام الريح الساخنة . وسارت راشيل مع كولو ساعات طويلة ، دون أن يجدا أثرا للماء ، حتى اذا اقترب المساء ، عادا أدراجهما .. ورآهما كاليب يقتربان متخاذلين ، فعرف أنهم سيقضون ليلة سيئة ، وأن الغد سيكون أسوأ ـ اذا قدر لهم أن يعيشوا الى الغد ! ـ وشعر اذ ذاك بالملاريا تعاوده ، وانتابته الحمى ، وألح عليه الالم فى عظامه .. فتناول قرصين من « الكينا » ، محاولا كبح جماح المرض ، ولكن بغير جدوى . ونظرت اليه راشيل فى قلق ، ولكنها لم تقل شيئا .. وما لبث كولو أن قال : « انها منطقة جافة لا ماء فيها أيها السيد » . فأخذ كاليب المسدس من راشيل ، قائلا لها : « ابقى مع الماشية أنت

وكوزونجو ، وسنذهب انا وكولو ! » . وعندئذ قال واحد من رجال ديكا : « أين الطعام ايها السيد الابيض ؟ » . فقال كاليب : « سنذهب الآن لنحضره » . ولكن رجال ديكا كانوا يعرفون انه يكذب ، لانه وكولو كانا ذاهبين الى حيث لايوجد صيد !

وما أن ابتعدا خطوات ، حتى صدرت عن كولو حركة مفاجئة ، وأومأ الى كاليب فى صمت ، مشيرا الى مكان ما ، وقد تملكته الرهبة ، فاختطف « كاليب » مسدسه ، ثم نظر الى الناحية التى أومأ نحوها كولو ، ولكنه لم ير شيئا ..

وبعد هنيهة تحركت يد كولو ببطء فلمست يد كاليب ، ثم اشار مرة أخرى الى مكان وسط الادغال ، ولكن « كاليب » لم ير شيئا ، فالتفت الى كولو متسائلا ، واذا به كأنما قد تجمد من الخوف وهو يشير الى نفس المكان !.. وأمعن « كاليب » النظر ، فرأى الاعشاب الصفراء تهتز ، وميز بينها شيئا فى مثل صفرتها . وما لبث أن تبين هذا الشىء : كان لبؤة تتسلل بين الاعشاب فى بطء !.. وفجأة توقفت وهى ترفع رأسها ، وراحت تدير أنفها فى الهواء : أتراها اشتمت رائحة الماشية ، أم رائحة الرجال ؟.. كانت على بعد أربعمائة ياردة تقريبا منهم . وما لبث « كاليب » أن رأى شبلا صغيرا يظهر من بين الحشائش ويسير خلفها ، ثم تبعه شبل آخر فى حجمه . وتحركت هى ببطء ، وشبلاها يتبعانها ، يسيران حين تسير ، ويقفان حين تقف ، ويرفعان رأسيهما ليتشمما الريح ، حين تفعل ذلك .

وفيما هو مستغرق فى ملاحظتها ، اهتزت أعصابه فجأة ، حين رأى لبؤة أخرى تتسلل ، وقد طأطأت رأسها ، على بعد مائة ياردة من الشبلين . ثم لم يلبث أن ظهر أسد آخر ، وقد وقف رافعا رأسه ، يتشمم الريح .. ثم ظهرت لبؤة ثالثة !..
فجمدت أطرافه ، وقد أصبح أمامه الآن ستة أسود !..

ولكنه تمالك نفسه ، واستلقى بحذر على بطنه ، وأرخى عضلات ذراعيه ، منتظرا اللحظة التى يلقى فيها بثقله على مرفقيه ويطلق النار .. وراحت اللبؤة التى تقود السرب تتسلل ببطء ، يتبعها شبلاها ، ثم لم تلبث أن توقفت ورفعت راسها ، وقد بدا لكاليب أنها تنظر مباشرة اليه ، فرفع نفسه على مرفقيه ، وصوب المسدس بيد ثابتة ، ولكن اللبؤة اختفت خلف الاعشاب ، فوجه المسدس نحو اللبؤة الثانية .. وكانت بعيدة ، ولكنه كان واثقا من أنه سيصيبها . وأطلق مسدسه ، ولكن اللبؤة اختفت عن ناظره ، فتمتم قائلا : « لقد أخطأتها! » . فقال كولو فى أسى : « نعم . لقد أخطأتها أيها السيد » .

***

وفى هذه الاثناء كانت راشيل تنظر من بعيد ، فى رعب قاتل ، وهى تبتهل قائلة : « ليساعده الله . اننى لا استطيع أن أفعل له شيئا ! » .. ثم اقتربت ناحيته ، فصرخ فيها : « عودى يا راشيل ، وامكثى بجانب النار ! » . فتوقفت وهى تتلفت نحوه فى يأس ..

وفى الظلام ، قال كولو بمرارة : « ليس رجال ديكا بصائدى أسود .. بل انهم ليسوا رجالا على الاطلاق ! » . وكان رجال ديكا قد التصقوا بعضهم ببعض بجانب النار ، تاركين الماشية . فقام « كاليب » مع كولو وكوزونجو وربطوا الماشية بالحبال ، بحيث لايمكنها أن تذهب بعيدا ، فوقفت الآن فى دائرة ، ورؤوسها تهتز فى قلق .. وكان الظلام حالكا ، والنجوم قليلة فى السماء ، وقد اختفى القمر .. وفجأة صاح كوزونجو : « أيها السيد الابيض ، ثمة شىء هنا ! » . وكان صوته يرتعد من الرعب . وراح الكلب جوب يقفز حول الماشية . وانتصب أحد الثيران وراح يحاول أن يتملص من قيده وينطلق مذعورا . ووقف كاليب متطلعا والمسدس فى يده ، بينما حمل كولو مشعلا وأداره الى الناحية التى اشار

اليها كوزونجو .. ولكنهم لم يروا شيئا ، ولم يسمعوا اى صوت .. وظلوا واقفين وعيونهم تحدق فى الظلام ..

وفجأة ، سمعوا على البعد زئير أسد ، فسرت بين الماشية حركة فزع ، وسقطت بقرة على الارض تتخبط فى قيدها ، ثم سقطت أخرى فوقها ، وراح جوب يقفز هنا وهناك وهو ينبح ويعوى .. وأفلت ـ فى تلك الاثناء ـ ثور من قيده ، وانطلق يجرى مذعورا فى الظلام ، غير مبال بالكلب الذى انطلق يجرى خلفه ، محاولا أن يعيده . وراح كاليب يصفر لجوب فى انزعاج كى يعود .. وفى تلك اللحظة ، سمعوا صرخة أقرب الى صرخة الانسان منها الى صرخة الحيوان ، فسقطت الماشية بعضها فوق بعض ، وانكمش رجال ديكا وهم يرتعدون بجانب النار ، بينما كانت الاسود على بعد خطوات تلتهم الثور فى زمجرة مرعبة .. وغمغم كاليب وهو ينظر الى راشيل : « ما كان ينبغى أن تتبعينى الى هنا » . فتطلعت اليه فى عطف ، قائلة : « استرح قليلا يا كاليب ! »

فارتمى على الارض ، وسرعان ما استغرق فى النوم .. واذ ذاك جلست بجانبه ، ووضعت المسدس على ركبتها ، وهى تسمع أصوات الاسود من بعيد .. ولم تلبث أن استغرقت فى النعاس .. حتى اذا انتصف الليل ، استيقظت على صوت ثغاء الماشية ، فرأت كاليب يحاول تهدئتها مع كولو وكوزونجو . ولم يكونوا يستطيعون أن يروا شيئا فى الظلام .. وما لبثوا أن ناموا مرة أخرى ، حتى الفجر .

وعندما أرادت راشيل فى الصباح أن تحلب الابقار وجدت أن لبنها جميعا قد جف ، ماعدا واحدة استطاعت أن تستخلص منها نصف كوب لكل منهم . وبعد أن شربوا اللبن ، سار أحد رجال ديكا متثاقلا نحو كاليب ، وصارحه بأنهم عائدون الى ديكا ، فقال له كاليب انهم لو فعلوا لافترستهم الاسود!.. لكن راشيل حدثت نفسها بأنهم ولا ريب كانوا يعرفون أن

الاسود قد اكلت كفايتها فى الليلة الماضية ، ولابد انها كانت نائمة — اذ ذاك — فى مكان ما من الغابة ، ومن ثم كان فى وسع الرجال أن يعودوا بسلام الى ديكا فى وضح النهار .. وساءلت راشيل نفسهـــا : هل ينبغى أن يعودوا — هم بدورهم — أدراجهم ؟.. **لو أنهم عادوا فسوف يجدون الماء بعد مسيرة يوم واحد ، فى حين أنهم قد لا يجدون الماء أبدا ، اذا واصلوا رحلتهم !..** غير أنهم كانت تنقصهم الشجاعة لان يعودوا كل المسافة التى قطعوها ، ولم يكن فى وسعهم الا الاستمرار فى طريقهم .. بعد أن تركوا رجال ديكا يعودون الى قريتهم .

***

وأقلقت راشيل فكرة انعدام المـاء ، سيما حين توقدت حرارة الشمس ، فقد جف ريقها ، والتصق لسانها بحلقها ، وصارت بالكاد تستطيع احتمال مجهود الـكلام !.. وراح الرجال يسيرون تحت وهج الشمس وقد طأطأوا رؤوسهم ، وكلما أوغلوا فى السير ازدادت رؤوسهم انحناء ، وخطواتهم بطءا .. وتقدم كولو ليبحث عن الماء ، بينما راح « كاليب » يحوم حــول الماشية كى يحرسها . وقــد أعجبت راشيل بعزيمته التى لا تلين ، لكنها خشيت أن تعاوده الملاريا فى ذلك الجو الخانق ، فراحت تفكر فيما عساها أن تفعل او سقط مريضا !.. انها عندئذ سوف تضعه على محفة ، وتأمر الرجال بأن يحملوه الى دايبيلا ، تاركة الماشية للاسود !

وقرب المساء ، عاد كولو .. فما أن ظهر — عن بعد — حتى هرول كاليب نحوه ، وتبعته راشيل . ولـكنه هز كتفيه فى يأس قائلا : « ليس ثمة ماء على الاطلاق ! » ، ثم ألقى بنفسه على الارض فى اعياء ، وتبعه الباقون ، وقد سادهم جميعـا صمت رهيب .. بينما راحت الريح تعوى فى ثنايا الادغال !

وبعد هنيهة ، قال كاليب : « لم يعد أمامنا الا أن تعود بمفردك يا كولو الى دايبيـــلا ، وتأتى الينا برجـــال يحملون

الماء » . فصمت كولو فترة طويلة ، ثم قال أخيرا : « الافضل ألا أذهب أيها السيد » . فصاح كاليب فى حدة : « لماذا ؟.. اذا طلبت اليك أن تذهب ، فهل تأبى ؟ »

ــ سأفعل ما تأمر به أيها السيد ، ولكن الافضل ألا تأمرنى بالذهاب .. فلست أعتقد أن الحكمة تقضى بذلك .

فقال كاليب : « اذن سأرسل كوزونجو » .

فتأوه كولو قائلا : « اذا كان ينبغى أن ترسل أحدا أيها السيد ، فالافضل أن أذهب أنا . ان كوزونجو لا يحب أن يسير فى الغابة وحده » . فقال كاليب فى حدة : « يجب أن يذهب أحدنا يا كولو . اننا نحتاج الى ثلاثين أو أربعين رجلا يحملون الماء ! » . فقال كولو : « ان الرجال لا يمكنهم أن يحملوا قدرا كافيا من الماء طيلة هذه المسافة ، أيها السيد .. ومن ثم فلن يؤدى ذلك الى انقاذ الماشية .. لا يملك أن ينقذ الماشية الآن الا الله وحده ! » . فصاح كاليب : « ولكن علينا أن نحاول .. اذهب ! »

***

ولم يكد كولو يهم بالمسير ، حتى سرت حركة غريبة بين الماشية ، فبدأت تنتصب على أقدامها ، ثم أفلت أحد الثيران وانطلق يجرى ، وهمت باقى الماشية تريد أن تتبعه .. وفجأة ، اهتزت الاعشاب الطويلة ، وقفزت من بينها لبؤة ، أنشبت مخالبها فى بقرة ، فكسرت عنقها بضربة واحدة . وعندئذ رفع كاليب المسدس وأطلقه بسرعة ، فسقطت اللبؤة على ظهرها .. لكن لبؤة أخرى برزت من اليسار واندفعت نحوه .. ولم يكن متنبها اليها ، فصرخت راشيل صرخة نافذة ، وألقت بنفسها ناحيته ، وقلبها يكاد ينخلع خوفا عليه . فالتفت وصوب المسدس فى الحال .. ولكنه أخطأ اللبؤة الاخرى ، فراح الكلب جوب يقفز ناحيتها ، ولكنها انقضت عليه فمزقته بمخالبها .. وأطلق كاليب المسدس مرة أخرى ،

فدارت اللبؤة حول نفسها مرتين ، ثم ارتمت على بعدخطوات منه !

.. وفى غمرة الهدوء المفاجىء ، خيم الذهول لحظة على الرجال والماشية على السواء ، ثم اندفعت راشيل نحوكاليب وهى تبكى فى نوبة هستيرية ، بينما صاح كواو : « لقد قتلت اثنتين يا سيدى ! قتلت اثنتين يا سيدى !.. ولكن خذ حذرك ، فهناك أسود أخرى ! » .

وبدا أن كاليب لم يكن يسمعه ، وهو منحن على جثةجوب الممزقة ، ودموعه تنساب من عينيه . وكانت راشيل تنظر اليه من خلال دموعها هى الاخرى ، وهى تضغط علىذراعه ، مقدرة عاطفته . وفى تلك اللحظة ، صرخت بقرة فى ألم ، فالتفتوا نحوها ، واذا ساقها قد تمزقت ، وان ظلت حية ؛ فرفع كاليب المسدس وأطلقه على رأسها .. ثم قفز كولو نحوها فحز رقبتها بالسكين ، وتلقى دمها فى اناء ، حمله الى راشيل وهو يقول : « اشربى يامدام ! » . ولكنها هزت رأسها فى رفض ، فقدمه الى كاليب قائلا : « اشرب يا سيدى ! » ، فرفض هو الآخر .. وعاد كولو يقول : « انكما فى حاجة الى التقوية ، وهذا يمنحكما القوة ! » . لكن راشيل هزت رأسها مرة أخرى ، فى حين تناول كاليب الاناء من كولو ، ورفعه فى بطء الى شفتيه . ولكنه لم يكد يتذوق الدم ، حتى بصقه فى تأفف ، ورد الاناء مرة أخرى .

وصاح كوزونجو : « ياله من نصر عظيم أيها السيد » . فنظر كل من كاليب وراشيل نحو الآخر .. ان قتل الاسود لم يشعر واحدا منهما بالنصر . فقد كانا ملطخين بالدماء ، ولكنهما لم يستطيعا أن يشربا الدماء !.. كانا يريدان أن يعيشا ، ولكن الجوع والعطش كانا يكادان يهلكانهدا ..

وقال كاليب : «لقد انقذت حياتى ياراشيل حين صرخت» .

فهزت راسها قائلة : « لقد كانت صرخة هستيرية ، لعلنى اربكتك بها » .

قال : « كلا . . لقد صحت قائلة : « يسارك ياكاليب . يسارك يا كاليب ! » » . فنظرت اليه فى دهشة : « لست أذكر أننى قلت ذلك . . ظننتنى صحت فقط » . فقال : « كلا . اننى واثق من انك قلت ذلك » . ثم تألقت عيناه اذ التقتا بعينيها ، وحاول أن يبتسم وهو يقول لها : « لقد أنقذت حياة كثيرين يا راشيل » .

وادركت انه كان يفكر فى بول . . وفى الحال أرادت أن تغير الموضوع ، فقالت : « كيف حالك الآن ؟ اما تزال تشعر بالحمى ؟ » . فكذب قائلا : « كلا ، لقد انتهت الحمى ، وأشعر الآن أننى بخير » .

***

وواصلوا المسير وهم يكادون يهلكون من العطش ، فى وقدة الشمس . . حتى اذا اقترب المساء ، بلغوا واديا منبسطا . وهناك أبصروا سحابة بيضاء تلوح فى السماء الصافية ، فصاحت راشيل : « انها سحابة ممطرة » . وتهلل كاليب وأسرع نحو كوار فحدثه قليلا ، ثم انطلق الاثنان مسرعين حتى لحقا بكوزونجو ، وأخذاه معهما . . وانطلق الثلاثة مبتعدين ، حتى اختفوا عن البصر . وهناك فى بقعة منخفضة ، رأتهم راشيل يحفرون فى الارض أخدودا واسعا ، ايكون وعاء لماء المطر ، تشرب منه الماشية . .

ولكن السماء ظلت صافية لاتبشر بهطول المطر . وطال انتظارهم عبثا ، وقد شقق العطش شفاههم ، واحرق جوفهم ، فارتموا على الارض فى اعياء ، وقد ظنوا أن نهايتهم حانت ، اذ أصبحوا عاجزين عن مواصلة السير ، ولم يعد أمامهم الا أن يموتوا حيث كانوا . . وران الصمت على المكان كله ، فاستلقى الجميع فى استسلام .

واخيرا ، وقف كاليب ، ومشى مترنحا نحو راشيل ، وهو يحاول أن يبتسم — وكانت تعرف أنه بالكاد يستطيع أن يراها — وقال لها : « اننا سنترك هذه الماشية الملعونة ، ونذهب يا راشيل » . فقالت : « كلا ، لن نتركها ياكاليب » .. وفى تلك اللحظة ، دوى فجأة هزيم الرعد ، فرفع كاليب رأسه الى السماء ، وانتصب الرجال جميعا على أقدامهم ، يتطلعون الى السحابة البيضاء ، وقد تشربت بحمرة الشمس الغاربة . وهبت ريح ساخنة على الارض ، ثم سقطت بضع قطرات من المطر ، فنهضت راشيل مسرعة واوقدت نارا ، وما لبث المطر أن انهمر بشدة ، فقال كولو : « انها ارادة الله ! » . وعندئذ تطلع كاليب نحو السماء قائلا : « نعم . شكرا لله » .

وسرعان ما امتلأ الاخدود الذى حفروه بالماء ، فغمروا فيه وجوههم وهم يضحكون كالاطفال ، وملأوا أوانيهم ، وراحوا يشربون فى شراهة .. وتجمعت الماشية حول الحفرة وراحت تروى ظمأها .

***

ولكن كاليب ما لبث أن شعر فجأة بالبرودة تسرى فى أطرافه ، فراح يرتعد وأسنانه تصطك ، فنظرت اليه راشيل فى جزع قائلة : « تعال بجوار النار يا كاليب ! » . وأرقدته ، وخلعت عنه حذاءيه ، ولفته فى غطاء لفا محكما . وكان الظلام قد خيم .. وفى الضوء الخافت الذى كان ينبعث من النار ، أبصرت شفتيه وقد غدتا زرقاوين . **ولمست جبينه ، فاذا هو بارد كالثلج ، وقد راح جسمه ينتفض انتفاضا عنيفا . فحدثت نفسها فى جزع : « انه سيموت . أواه يا الهى ، انه سيموت ! » .**

وكان يتمتم قائلا : « اننى آسف . اننى آسف » .. عين العبارة التى كان يرددها حين رأته أول مرة ، وهو مريض ،

فهل قدر له ياترى ان يخرج من حياتها على نفس الصورة التى دخلها بها ؟

ونادت فى الظلام « كولو » ، فجاء مسرعا .. وقالت له : « ان السيد الابيض مريض جدا ، ويجب أن نضرم له نارا كبيرة » . ثم قالت له : « امكث أنت مع الباقين فى حراسة الماشية ، وسأعتنى أنا بالمريض » .

وانحنت على كاليب تنصت الى اصطكاك أسنانه ، دون أن تستطيع له شيئا . لقد قطعت معه كل ذلك الطريق دون أن يكون فى أمكانها أن تفعل له شيئا . وها هو ذا مريض ، يعانى الآلام ، وهى بعد عاجزة عن أن تساعده فى شىء !

ولكنها فجأة حزمت أمرها على قرار .. كان ثمة شىء واحد تملك أن تفعله من أجله ، فلم تتردد فى أن تفعل هذا الشىء ، وفى الحال خلعت حذاءيها ووضعتهما بجانب حذاءيه ، ونامت بجواره ، وألصقت جسمها بجسمه ، فهتف فى تساؤل ودهشة : « راشيل ؟.. راشيل ؟ » . فقالت له وهى تزداد التصاقا به : « اننى أريد ذلك فاهدأ ونم » .

واذا كان الدفء الحيوانى هو كل ما تستطيع أن تعطيه له ، فقد أعطته اياه فى سرور .. واذا كان الموت هو الثلج ، فلتواجهه بالنار .. واذا كان نومها بجواره وضم جسده الى جسدها ينطوى على رذيلة ، فالرذيلة ضرورية فى هذه الحالة .. فقد كان لزاما أن يعيش !.. كان يمثل كل آمال (دايبيلا).. بل ماذا ؟.. لقد أدركت الآن أنه يمثل كل آمالها هى كذلك !

وجذبها بذراعيه ، وراحت يداه ترتعدان وهما تعبثان بشعرها ، وهو لا يفتأ يهتف : « راشيل ! » ، فقالت له : « اهدأ ، ونم ! » . وحدثت نفسها : « لو شاء الله له أن يعيش ، فلن يعيش وحيدا بعد اليوم ! »

وبدأت رعدته الفظيعة تهدأ ، وقد سرت حرارة جسدها فى جسده ، وسكنت ذراعاه المرتجفتان واسترختا حول ذراعيها ،

وراح تنفسه ينتظم بجوار خديها ، وهى تحس بدقات قلبه الملتصق بقلبها .. وأخيرا اغمض عينيه ونام ! .

- ٢٧ -

• **استيقظت** مع الفجر، وهى الى جواره، فحدثت نفسها : « ينبغى أن أتركه الآن ، **ولكننى لن أتركه بعد ذلك أبدا .. ولن أترك دايبيلا ، أو افريقيا ! »**

واجتاحها شعور بالسلام لم تشعر بمثله من قبل .. فتسللت من تحت الغطاء ، وانحنت عليه فقبلته فى شفتيه ، ثم انتقلت الى الناحية الأخرى من النار . ومن هناك راته — بعد هنيهة — يفتح عينيه، ويتلفت حواليه باحثا عنها، حتى اذا أبصرها ابتسم قائلا : « صباح الخير يا راشيل » . فعادت وجلست بجانبه وهى تقول له : « سعدت صباحا يا كاليب ». ثم أردفت وهى تبتسم : « أرجو أن تكون الآن بخير » . فقال : « نعم ، اننى بخير » .

ومد يده فأمسك بيدها قائلا : « أشكرك يا راشيل » ، فنظرت الى بعيد ، وحاولت أن تسحب يدها ، ولكنه لم يتركها ، وانما قال لها : « أحبك يا راشيل .. وأريد أن أتزوجك ! » .

فقالت له : « وأنا أحبك يا كاليب .. »

وعندئذ ارتمى عليها ، وضمها اليه، وقبل شفتيها، فضمته هى فى عنف ، وبادلته قبلة ملتهبة ، فراح يغمغم قائلا : « اننى لا أصدق ! »

وكانت هى لا تصدق كذلك .. ولكنها وجدت نفسها تحبه بالفعل ، وكأنها لم تحب بول أبدا .. كأنما بول لم يوجد أبدا !

وعادت الى دايبيلا ، وتزوجت من كاليب ، وبقيت معه فى الأرض التى أحبتها : أفريقيا .

تمت

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تصدر :

ملاحظات نحو تعريف الثقافة

تأليف : ت. س. اليوت

ترجمة : د. شكرى محمد عياد

مراجعة : عثمان نوية

١٤٨ صفحة - ١٣ ق طبعة عادية
٢٠ طبعة ممتازة

توزيع فى الداخل والخارج : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى ت ٧٨٩٩٤

أمة من غنم

تأليف : وليم ليدرر

ترجمة : على جمال الدين عزت

مراجعة : د. عبد الغنى خلف الله

١٨٤ صفحة - ٥ ر ١٢ قرش

يطلب من مؤسسة الخانجى ١١ شارع عبد العزيز ت ٤٣١٤٨

سالامبو

تأليف : جوستاف فلوبير

ترجمة : بولس غانم

مراجعة : د. ريمون فرنسيس

٣٤٣ صفحة - ٢٢ قرشا

يطلب من دار النصر للطباعة والنشر ٨ ش محمد سعيد ت ٣١٧٤٨

طباعة المنسوجات في إطار الثقافة

تأليف : عزيزة محمود عزب

٣١٢ صفحة - ٤٢ قرشا

يطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابى ت ٤٦٣٨٣

كيف تعمل المؤثرات السينمائية

تأليف : جوليان كونتر

ترجمة : هاشم النحاس

مراجعة : فريد المزاوى

٣٠٤ صفحة - ١٨ قرشا

يطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابى ت ٤٦٣٨٣

كيف تكتب القصص السينمائية

تأليف : ريتشارد هاريسون

ترجمة : الدكتور شوقى السكرى

مراجعة : فريد المزاوى

١٩٧ صفحة - ١٣ قرشا

يطلب من دار النهضة العربية ٣٢ شارع عبد الخالق ثروت ت ٧٦٢٣١

مفاجأة العدد القادم من

مطبوعات كتابى

اول تعريف باللغة العربية بمسرح الكاتب المسرحى المعاصر :

اوجين يونيسكو

ترجمة كاملة لأحسن ما كتب :

قاتل .. بلا أجر !

مسبوقة بمقدمة ودراسة طويلةعن مسرح يونيسكو، بقلم **الدكتور انور لوقا** ، مدرس الادب الفرنسى بكلية آداب عين شمس .

ترقب العدد اول فبراير

بالتعاون

تحطمت قيود الاستعمار

الجمعية التعاونية للبترول

نحن نقرأ لك كل شهر عشرات الكتب
العالمية، القديمة والحديثة، كى ننتقى
لك كتابا من أشهرها نقدمه إليك فى
منتصف كل شهر بنصه الكامل، فى
ترجمة دقيقة معتمدة مراجعة
دار "مطبوعات كتابى" الفخورة بأنها
ظفرت برضائك فى أعدادها الماضية
فما هى تحفتها القادمة التى أعدتها لك؟
اقرأ التفصيلات فى الداخل
مطبوعات كتابى
يصدرها: حلمى مراد
الترجمة الكاملة الأمينة
لشوامخ الكتب العالمية